أى أمر الاله ظاهر فى تقديره وحكمه بالموت على العباد ولكن الناس مختلفون فمنهم من يدعو سيرته الفاسدة الى الضلال وهو أن يركن الى الدنيا ويحرص على جمع حطامها فيقتدى غيره به فيضل ومنهم من يزهد فى الدنيا فيدعو بزهده الى الهدى فيصير هاديا

والذى حارت البرية فيه * حيوان مستحدث من جماد

أى والذى تحير الناس فيه ولم يهتدوا بعقولهم لوجهه أمر الحيوان المخلوق من الجماد وهو الذى لا حياة فيه يعنى به آدم عليه السلام حيث خلق من التراب وهو جماد وقد تاهت العقول فى فطرته

واللبيب اللبيب من ليس يغتر بكون مصيره للفساد

أى والعاقل الكامل من لا يصير مغترا بالحياة الفانية وكونه فى دار عاقبتها زوال وفناء

(سقط الزند)

الباب التاسع فى الجغرافيه والتاريخ

(ذكر مذاهب أهل مصر ونحلهم منذ افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنه أرض مصر الى أن صاروا الى اعتقاد مذاهب الائمة رحمهم الله تعالى وما كان من الاحداث فى ذلك)

اعلم أن الله عز وجل لما بعث نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا الى كافة الناس جميعا عربهم وعجمهم وهم كلهم أهل شرك وعبادة لغير الله تعالى الا بقايا من أهل الكتاب كان من أمره صلى الله عليه وسلم مع قريش ما كان حتى هاجر من مكة الى المدينة فكانت الصحابة رضوان الله عليهم حوله صلى الله عليه وسلم يجتمعون اليه فى كل وقت مع ما كانوا فيه من ضنك المعيشه وقلة القوت فمنهم من كان يحترف فى الاسواق ومنهم من كان يقوم على نخله ويحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل وقت ومنهم طائفة عند ما تجد أدنى فراغ مما هم بسبيله من طلب القوت فاذا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة أو حكم بحكم أو أمر بشئ أو فعل شيأ وعاد من حضر عنده من الصحابة وفات من غاب عنه علم ذلك الا ترى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد خفى عليه ما علمه حمل بن مالك بن النابغة رجل من الاعراب من هذيل فى دية الجنين وكان يفتى فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو موسى الاشعرى وسلمان الفارسى رضى الله عنهم فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه تفرقت الصحابة رضى الله عنهم فمنهم من خرج لقتال مسيلمة وأهل الردة ومنهم من خرج لقتال أهل الشام ومنهم من خرج لقتال أهل العراق وبقى من الصحابة

بالمدينة مع أبي بكر رضي الله عنه عدة فكانت القضية اذا نزلت بأبي بكر رضي الله عنه قضى فيها بما عنده من العلم بكتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان لم يكن عنده فيها علم من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل من يحضره من الصحابة رضي الله عنهم عن ذلك فان وجد عندهم علما رجع اليه والا اجتهد في الحكم ولما مات أبو بكر وولي أمر الامة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتحت الامصار وزاد تفرق الصحابة رضي الله عنهم فيما افتتحوه من الاقطار فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو غيرها من البلاد فاذا كان عند الصحابة الحاضرين لها في ذلك أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم به والا اجتهد أمير تلك البلدة في ذلك وقد يكون في تلك القضية حكم عن النبي صلى الله عليه وسلم موجود عند صاحب آخر وقد حضر المدني مالم يحضر المصري وحضر المصري مالم يحضر الشامي وحضر الشامي مالم يحضر البصري وحضر البصري مالم يحضر الكوفي وحضر الكوفي مالم يحضر المدني كل هذا موجود في الآثار وفيما علم من مغيب بعض الصحابة عن مجالس النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الاوقات وحضور غيره ثم مغيب الذي حضر أمس وحضور الذي غاب فيدري كل واحد منهم ما حضر ويفوته ما غاب عنه فقضى الصحابة رضي الله عنهم على ما ذكرنا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم وكل طبقة من التابعين في البلاد التي تقدم ذكرها فانما تفقهوا مع من كان عندهم من الصحابة فكانوا لا يتعدون فتاويهم الا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة رضي الله عنهم كاتباع أهل المدينة في الاكثر فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ثم أتى من بعد التابعين رضي الله عنهم فقهاء الامصار كأبي حنيفة وسفيان وابن أبي ليلى بالكوفة وابن جريج بمكة ومالك وابن الماجشون بالمدينة وعثمان البتي وسوار بالبصرة والاوزاعي بالشام والليث بن سعد بمصر فجروا على تلك الطريق من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم واجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم وهو موجود عند غيرهم (وأما مذهب أهل مصر) فقال أبو سعيد بن يونس بن عبيد ابن محمر المغافري يكنى أبا أمية رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شهد فتح مصر روى عنه أبو قبيل يقال انه كان أول من أقرأ القرآن بمصر وذكر أبو عمر والكندي أن أبا ميسرة عبد الرحمن ابن ميسرة مولى الملامس الحضرمي كان فقيها عفيفا شريفا ولد سنة عشر ومائة وكان أول الناس اقرأ بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة وتوفي سنة ثمان وثمانين ومائة وذكر عن أبي قبيل وغيره أن يزيد بن أبي حبيب أول من نشر العلم بمصر في الحلال والحرام وفي رواية ابن يونس ومسائل الفقه وكانوا قبل ذلك انما يتحدثون في الفتن والترغيب وعن عون بن سليمان الحضرمي قال كان عمر ابن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال رجلان من الموالي ورجل من العرب

فاما العربى فجعفر بن ربيعة وأما المولیان فیزید بن أبی حبیب وعبد الله بن أبی جعفر فكأن العرب أنكروا ذلك فقال عمر بن عبد العزیز ماذنبی ان كانت الموالی تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون وعن ابن أبی قدید كانت البیعة اذا جاءت للخلیفة أول من یبایع عبد الله بن أبی جعفر ویزید بن أبی حبیب ثم الناس بعد وقال أبو سعید بن یونس فی تاریخ مصر عن حیوة بن شریح قال دخلت على حسین بن شفی بن مانع الاصبحی وهو یقول فعل الله بفلان فقلت ماله فقال عمد الی كتابین كان شقی سمعهما من عبد الله بن عمرو بن العاص رضی الله عنهما أحدهما قضی رسول الله صلی الله علیه وسلم فی كذا وقال رسول الله صلی الله علیه وسلم كذا والآخر ما یكون من الاحداث الی یوم القیامة فأخذهما فرمی بهما بین الخولة والرباب قال أبو سعید بن یونس یعنی بقوله الخولة والرباب مركبین كبیرین من سفن الجسر كانا یكونان عند رأس الجسر مما یلی الفسطاط یجوز من تحتهما الكبر هما المراكب وذكر أبو عمرو الكندی أن أبا سعید عثمان بن عتیق مولی غافق أول من رحل من أهل مصر الی العراق فی طلب الحدیث توفی سنة أربع وثمانین ومائة انتهی وكان حال أهل الاسلام من أهل مصر وغیرها من الامصار فی أحكام الشریعة على ما تقدم ذكره ثم كثر الترحل الی الآفاق وتداخل الناس والتقوا وانتدب أقوام لجمع الحدیث النبوی وتقییده فكان أول من دون العلم محمد بن شهاب الزهری وكان أول من صنف وبوب سعید بن عروبة والربیع بن صبیح بالبصرة ومعمر بن راشد بالیمن وابن جریج بمكة ثم سفیان الثوری بالكوفة وحماد بن سلمة بالبصرة والولید ابن مسلم بالشام وجریر بن عبد الحمید بالری وعبد الله بن المبارك بمرو وخراسان وهشیم بن بشیر بواسط وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبی شیبة بتكثیر الابواب وجودة التصنیف وحسن التألیف فوصلت أحادیث رسول الله صلی الله علیه وسلم من البلاد البعیدة الی من لم تكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شیء منها وجمعت الاحادیث المبینة لصحة أحد التویلات المتأولة من الاحادیث وعرف الصحیح من السقیم وزیف الاجتهاد المؤدی الی خلاف كلام رسول الله صلی الله علیه وسلم والی ترك عمله وسقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن بلوغه الیه وقیام الحجة علیه وعلى هذا الطریق كان الصحابة رضی الله عنهم وكثیر من التابعین یرحلون فی طلب الحدیث الواحد الایام الكثیرة یعرف ذلك من نظر فی كتب الحدیث وعرف سیر الصحابة والتابعین فلما قام هارون الرشید فی الخلافة وولی القضاء أبا یوسف یعقوب بن ابراهیم أحد أصحاب أبی حنیفة رحمه الله تعالى بعد سنة سبعین ومائة فلم یقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر الا من أشار به القاضی أبو یوسف رحمه الله واعتنی به وكذلك لما قام بالاندلس الحكم المرتضی بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاویة بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بعد أبیه وتلقب بالمنتصر فی سنة ثمانین ومائة

اختص بيحيي بن يحيي بن كثير الاندلسي وكان قد حج وسمع الموطأ من مالك الا أبوابا وحمل عن ابن وهب وعن ابن القاسم وغيره علما كثيرا وعاد الى الاندلس فنال من الرياسة والحرمة ما لم ينله غيره وعادت الفتيا اليه وانتهى السلطان والعامة الى بابه فلم يقلد في سائر أعمال الاندلس قاض الا باشارته واعتنائه فصاروا على رأي مالك بعد ما كانوا على رأي الاوزاعي وقد كان مذهب الامام مالك أدخله الى الاندلس زياد بن عبد الرحمن الذي يقال له شبطون قبل يحيي بن يحيي وهو أول من أدخل مذهب مالك الاندلس وكانت أفريقية الغالب عليها السنن والآثار الى أن قدم عبد الله بن فروج أبو محمد الفارسي بمذهب أبي حنيفة ثم غلب أسد بن الفرات بن سنان قاضي افريقية بمذهب أبي حنيفة ثم لما ولي سحنون بن سعيد التنوخي قضاء افريقيا بعد ذلك نشر فيهم مذهب مالك وصار القضاء في أصحاب سحنون دولا يتصاولون على الدنيا تصاول الفحول على الشول الى أن تولى القضاء بها بنو هاشم وكانوا مالكية فتوارثوا القضاء كما تتوارث الضياع ثم ان المعز بن باديس حمل جميع أهل افريقية على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه من المذاهب فرجع أهل افريقية وأهل الاندلس كلهم الى مذهب مالك الى اليوم رغبة فيما عند السلطان وحرصا على طلب الدنيا اذ كان القضاء والافتاء في جميع تلك المدن وسائر القرى لا يكون الا لمن تسمى بالفقه على مذهب مالك فاضطرت العامة الى أحكامهم وفتاواهم فغشاها هذا المذهب هنالك فشواطئ تلك الاقطار كما فشا مذهب أبي حنيفة ببلاد المشرق حيث ان أبا حامد الاسفرايني لما تمكن من الدولة في أيام الخليفة القادر بالله أبي العباس أحمد قرر معه استخلاف أبي العباس أحمد بن محمد البارزي الشافعي عن أبي محمد الاكفاني الحنفي قاضي بغداد فأجيب اليه بغير رضى الاكفاني وكتب أبو حامد الى السلطان محمود بن سبكتكين وأهل خراسان أن الخليفة نقل القضاء عن الحنفية الى الشافعية فاشتهر ذلك بخراسان وصار أهل بغداد حزبين وقدم بعد ذلك أبو العلاء صاعد بن محمد قاضي نيسابور ورئيس الحنفية بخراسان فأتاه الحنفية فثارت بينهم وبين أصحاب أبي حامد فتنة ارتفع أمرها الى السلطان فجمع الخليفة القادر الاشراف والقضاة وأخرج اليهم رسالة تتضمن أن الاسفرايني أدخل على أمير المؤمنين مداخل أوهمه فيها النصح والشفقة والامانة وكانت على أصول الدخل والخيانة فلما تبين له أمره ووضح عنده خبث اعتقاده فيما سأل فيه من تقليد البارزي الحكم بالحضرة من الفساد والفتنة والعدول بأمير المؤمنين عما كان عليه أسلافه من ايثار الحنفية وتقليدهم واستعمالهم صرف البارزي وأعاد الامر الى حقه وأجراه على قديم رسمه وحمل الحنفيين على ما كانوا عليه من العناية والكرامة والحرمة والاعزاز وتقدم اليهم بأن لا يلقوا أبا حامد ولا يقضوا له حقا ولا يردوا عليه سلاما وخلع على أبي محمد الاكفاني وانقطع أبو حامد عن دار الخلافة

وظهر التسخط عليه والانحراف عنه وذلك فى سنة ثلاث وتسعين ومائة واتصل ببلاد الشام ومصر (أول من قدم بعلم مالك) الى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح وكان فقيها روى عنه الليث وابن وهب ورشيد بن سعد وتوفى بالاسكندرية سنة ثلاث وستين ومائة ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر ولم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه الله يعرف بمصر قال ابن يونس وقدم اسماعيل بن اليسع الكوفى قاضيا بعد ابن لهيعة وكان من خير قضاتنا غير أنه كان يذهب الى قول أبى حنيفة ولم يكن أهل مصر يعرفون مذهب أبى حنيفة وكان مذهبه ابطال الاحباس فثقل أمره على أهل مصر وسئموه ولم يزل مذهب مالك مشتهرا بمصر حتى قدم الشافعى محمد بن ادريس الى مصر مع عبد الله ابن العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس فى سنة ثمان وتسعين ومائة فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها كبنى عبد الحكم والربيع بن سليمان وأبى ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى وأبى يعقوب يوسف بن يحيى البويطى وكتبوا عن الشافعى ما ألفه وعملوا بما ذهب اليه ولم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر وذكره ينتشر قال أبو عمر والكندى فى كتاب أمراء مصر ولم يزل أهل مصر على الجهر بالبسملة فى الجامع العتيق الى سنة ثلاث وخمسين ومائتين قال ومنع أرجون صاحب شرطة مزاحم بن خاقان أمير مصر من الجهر بالبسملة فى الصلوات بالمسجد الجامع وأمر الحسين بن الربيع إمام المسجد الجامع بتركها وذلك فى رجب سنة ثلاث وستين ومائتين ولم يزل أهل مصر على الجهر بها فى المسجد الجامع منذ الاسلام الى أن منع منها أرجون قال وأمر أن تصلى التراويح فى شهر رمضان خمس تراويح ولم يزل أهل مصر يصلون ست تراويح حتى جعلها أرجون خمسا فى شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين ومنع من التثويب وأمر بالاذان يوم الجمعة فى مؤخر المسجد وأمر بالتغليس بصلاة الصبح وذلك أنهم أسفروا بها ومازال مذهب مالك ومذهب الشافعى رحمهما الله يعمل بهما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب اليهما أو الى مذهب أبى حنيفة رحمه الله الى أن قدم القائد جوهر من بلاد أفريقيه فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة بجيوش مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد وبنى مدينة القاهرة فمن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة وعمل به فى القضاء والفتيا وأنكر ما خالفه ولم يبق مذهب سواه وقد كان التشيع بأرض مصر معروفا قبل ذلك قال أبو عمر والكندى فى كتاب الموالى عن عبد الله بن لهيعة أنه قال قال يزيد بن أبى حبيب نشأت بمصر وهى علوية فقلبتها عثمانية وكان ابتداء التشيع فى الاسلام أن رجلا من اليهود فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أسلم فقيل له عبد الله ابن سبا وعرف بابن السوداء وصار ينتقل من الحجاز الى أمصار المسلمين يريد اضلالهم فلم يطق ذلك

فرجع الى كيد الاسلام وأهله ونزل البصرة فى سنة ثلاث وثلاثين فجعل يطرح على أهلها مسائل
ولا يصرح فأقبل عليه جماعة ومالوا اليه وأعجبوا بقوله فبلغ ذلك عبد الله بن عامر وهو يومئذ
على البصرة فأرسل اليه فلما حضر عنده سأله ما أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغبت فى الاسلام
وفى جوارك فقال ما الذى بلغنى عنك أخرج عنى فخرج حتى نزل الكوفة فأخرج منها فسار الى
مصر واستقر بها وقال فى الناس العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدا يرجع
وتحدث فى الرجعة حتى قبلت منه فقال بعد ذلك انه كان لكل نبى وصى وعلى بن أبى طالب وصى
محمد صلى الله عليه وسلم فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن على بن أبى
طالب وصيه فى الخلافة على أمته واعلموا أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق فانهضوا فى هذا الامر
وأبدوا الطعن على أمرائكم فأظهروا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا به الناس
وبث دعاته وكاتب من مال اليه من أهل الامصار وكاتبوه ودعوا فى السر الى ما عليه رأيهم وصاروا
يكتبون الى الامصار كتبا يضعونها فى عيب ولاتهم فكتب أهل كل مصر منهم الى أهل المصر الآخر
بما يصنعون حتى ملؤا بذلك الارض اذاعة وجاء الى أهل المدينة من جميع الامصار فأتوا عثمان
رضى الله عنه فى سنة خمس وثلاثين وأعلموه ما أرسل به أهل الامصار من شكوى عمالهم
فبعث محمد بن مسلمة الى الكوفة وأسامة بن زيد الى البصرة وعمار بن ياسر الى مصر وعبد الله بن
عمر الى الشام لكشف سير العمال فرجعوا الى عثمان الا عمارا وقالوا ما أنكرنا شيأ وتأخر عمار
فورد الخبر الى المدينة بأنه قد استماله عبد الله بن السوداء فى جماعة فأمر عثمان عماله أن يوافوه
بالموسم فقدموا عليه واستشاروه فكل أشار برأى ثم قدم المدينة بعد الموسم فكان بينه وبين
على بن أبى طالب كلام فيه بعض الجفاء بسبب اعطائه أقاربه ورفعه لهم على من سواهم وكان
المنحرفون عن عثمان قد تواعدوا يوما يخرجون فيه بأمصارهم اذا سار عنها الامراء فلم يتهيأ لهم
الوثوب وعند ما رجع الامراء من الموسم تكاتب المخالفون فى القدوم الى المدينة لينظروا فيما
يريدون وكان أمير مصر من قبل عثمان رضى الله عنه عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى
فلما خرج فى شهر رجب من مصر فى سنة خمس وثلاثين استخلف بعده عقبة بن عامر الجهنى
فى قول الليث بن سعد وقال يزيد بن أبى حبيب بل استخلف على مصر السائب بن هشام العامرى
وجعل على الخراج سليم بن عنز التجيبى فانتزى محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس
ابن عبد مناف فى شوال من السنة المذكورة وأخرج عتبة بن عامر من الفسطاط ودعا الى خلع
عثمان رضى الله عنه وأسعر البلاد وحرض على عثمان بكل شئ يقدر عليه فكان يكتب الكتب
على لسان أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأخذ الرواحل فيضمرها ويجعل رجالا على ظهور

البيوت ووجوههم الى وجه الشمس لتلوح وجوههم تلويح المسافر ثم يأمرهم أن يخرجوا الى طريق المدينة بمصر ثم يرسلون رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم وقد أمرهم اذا لقيهم الناس أن يقولوا ليس عندنا خبر الخبر في الكتب فيجيء رسول أولئك الذين دس فيذكر مكانهم فيتلقاهم ابن أبي حذيفة والناس يقولون تلقى رسل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا لقوهم قالوا لهم ما الخبر قالوا لا خبر عندنا عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيجتمع الناس في المسجد اجتماعا ليس فيه تقصير ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول انا نشكوا الى الله واليكم ما عمل في الاسلام وما صنع في الاسلام فيقوم أولئك الشيوخ من نواحي المسجد بالبكاء فيبكون ثم ينزل عن المنبر ويتفرق الناس بما قرئ عليهم فلما رأت ذلك شيعة عثمان رضي الله عنه اعتزلوا محمد بن أبي حذيفة ونابذوه وهم معاوية بن خديج وخارجة بن حذافة وبسر بن أرطاه ومسلمة بن مخلد وعمرو بن محرز الخولاني ومقسم بن بجرة وحمزة بن سرح بن كلال وأبو الكنود سعد بن مالك الازدي وخالد بن ثابت الفهمي في جمع كثير وبعثوا مسلمة ابن مخرمة التجيبي الى عثمان ليخبره بأمرهم ويصنع بن أبي حذيفة فبعث عثمان رضي الله عنه سعد ابن أبي وقاص ليصلح أمرهم فبلغ ذلك ابن أبي حذيفة فخطب الناس وقال ألا ان الكذا والكذا قد بعث اليكم سعد بن مالك ليشتت جماعتكم ويشتت كلمتكم ويوقع التجادل بينكم فانفروا اليه نخرج منهم مائة أو نحوها وقد ضرب فسطاطه وهو قائل فقلبوا عليه فسطاطه وشجوه وسبوه فركب راحلته وعاد راجعا من حيث جاء وقال ضربكم الله بالذل والفرقة وشتت أمركم وجعل بأسكم بينكم ولا ارضاكم بأمير ولا أرضاه عنكم وأقبل عبد الله بن سعد حتى بلغ جسر التلزم فاذا بخيل لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل فقال ويلكم دعوني أدخل على جندي فأعلمهم بما جئت به فاني قد جئتهم بخير فأبوا أن يدعوه فقال والله لوددت أني دخلت عليهم وأعلمتهم بما جئت به ثم مت فانه صرف الى عسقلان وأجمع محمد بن أبي حذيفة على بعث جيش الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال من يتشرط في هذا البعث فكثر عليه من يتشرط فقال انما يكفينا منكم ستمائة رجل فتشرط من أهل مصر ستمائة رجل على كل مائة منهم رئيس وعلى جماعتهم عبد الرحمن بن عديس البلوي وهم كنانة بن بشر بن سليمان التجيبي وعروة بن سليم الليثي وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وسودان بن حمران الاصبحي وذرع بن يشكر النافعي وسجن رجل من أهل مصر في دورهم منهم بشر بن أرطاه ومعاوية بن خديج فبعث ابن أبي حذيفة الى معاوية بن خديج وهو أرمد ليكرهه على البيعة فلما بلغ ذلك كنانة بن بشر وكان رأس الشيعة الاولى دفع عن معاوية ما كره ثم قتل عثمان رضي الله عنه في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين فدخل الركب الى مصر وهم يرتجزون

خذها اليك واحذرن أبا الحسن * انا نمر الحرب امرار الوسن * بالسيف كي تخمد نيران الفتن

فلما دخلوا المسجد صاحوا انا قتلنا عثمان ولكن الله قتله فلما رأى ذلك شيعة عثمان قاموا وعقدوا لمعاوية بن خديج عليهم و بايعوه على الطلب بدم عثمان فسار بهم معاوية الى الصعيد فبعث اليهم ابن أبي حذيفة فالتقوا بقدنا من كورة البهنسا فهزم أصحاب ابن أبي حذيفة ومضى معاوية حتى بلغ برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث ابن أبي حذيفة بجيش آخر عليهم قيس ابن حرمل فاقتتلوا بخربتا أول شهر رمضان سنة ست وثلاثين فقتل قيس وسار معاوية بن أبي سفيان الى مصر فنزل سلمنت من كورة عين شمس في شوال فخرج اليه ابن أبي حذيفة في أهل مصر فمنعوه أن يدخلها فبعث اليه معاوية انا لا نريد قتال أحد انما جئنا نسأل القود لعثمان ادفعوا الينا قاتليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وهما رأس القوم فامتنع ابن أبي حذيفة وقال لو طلبت منا حربا أرطاب السرة بعثمان ما دفعناه اليك فقال معاوية بن أبي سفيان لابن أبي حذيفة اجعل بيننا وبينكم رهنا فلا يكون بيننا وبينكم حرب فقال ابن أبي حذيفة فاني أرضى بذلك فاستخلف ابن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخرمة وخرج في الرهن هو وابن عيسى وكنانة بن بشر وأبو شمر بن ابرهة وغيرهم من قتلة عثمان فلما بلغوا لدا سجنهم بها معاوية وسار الى دمشق فهربوا من السجن غير أبي شمر بن ابرهة فانه قال لا أدخله أسيرا وأخرج منه آبقا وتبعهم صاحب فلسطين فقتلهم واتبع عبد الرحمن بن عديس رجل من الفرس فقال له عبد الرحمن بن عديس اتق الله في دمي فاني بايعت النبي صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة فقال له الشجر في الصحراء كثير فقتله وقال محمد بن أبي حذيفة في الليلة التي قتل في صباحها عثمان فان يكن القصاص لعثمان فسنقتل من الغد فقتل من الغد وكان قتل ابن أبي حذيفة وعبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر ومن كان معهم من الرهن في ذي الحجة سنة ست وثلاثين فلما بلغ علي بن أبي طالب رضي الله عنه مصاب ابن أبي حذيفة بعث قيس بن سعد بن عبادة الانصاري على مصر وجمع له الخراج والصلاة فدخلها مستهل شهر ربيع الاول سنة سبع وثلاثين واستمال الخارجة بخربتا ودفع اليهم أعطياتهم ووفد عليه وفدهم فأكرمهم وأحسن اليهم ومصر يومئذ من جيش علي رضي الله عنه الا أهل خربتا الخارجين بها فلما ولي علي رضي الله عنه قيس بن سعد وكان من ذوي الرأي جهد معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص على أن يخرجاه من مصر ليغلبا على أمرها فامتنع عليهما بالدهاء والمكايدة فلم يقدرا على أن يلجاه مصر حتى كان معاوية قيسا من قبل علي رضي الله عنه فكان معاوية يحدث رجالا من ذوي رأي قريش فيقول ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب الي من مكايدة كدت بها قيس بن سعد حين امتنع مني قلت لاهل الشام لا تسبوا قيسا ولا تدعوا الى غزوه فان قيسا الناشيعة

تأتينا كتبه ونصيحته سرا ألا ترون ماذا يفعل باخوانكم النازلين عنده بخربتا يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب يأتيه منهم قال معاوية وطفقت اكتب بذلك الى شيعتى من أهل العراق فسمع بذلك جواسيس على بالعراق فأنهاه اليه محمد بن أبي بكر وعبد الله بن جعفر فتهم قيس فكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتا وبخربتا يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب الى على رضى الله عنه أنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا منى بان أؤمن سربهم وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم وقد علمت أن هواهم معاوية فلست بكائدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم وهم أسود العرب منهم بشر ابن أرطاة وسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج فابى عليه الاقتالهم فأبى قيس أن يقاتالهم وكتب الى على رضى الله عنه ان كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى وكتب معاوية رضى الله عنه الى بغض بنى أمية بالمدينة أن جزى الله قيس بن سعد خيرا فانه قد كف عن اخواننا من أهل مصر الذين قاتلوا فى دم عثمان واكتموا ذلك فانى أخاف أن يعزله على ان بلغه ما بينه وبين شيعتنا حتى بلغ عليا رضى الله عنه ذلك فقال من معه من رؤساء أهل العراق وأهل المدينة بدّل قيس وتحول فقال على ويحكم انه لم يفعل فدعونى قالوا لتعزلنه فانه قد بدّل فلم يزالوا به حتى كتب اليه انى قد احتجت الى قربك فاستخلف على عملك وأقدم فلما قرأ الكتاب قال هذا من مكر معاوية ولولا الكذب لمكرت به مكرا يدخل عليه بيته فوليها قيس بن سعد الى أن عزل عنها أربعة أشهر وخمسة أيام وصرف لخمس خلون من رجب سنة سبع وثلاثين ثم وليها الاشتر مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعى من قبل أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه وذلك أن عبد الله بن جعفر كان اذا أراد أن لا يمنعه على شيأ قال له بحق جعفر فقال له أسألك بحق جعفر الا بعثت الاشتر الى مصر فان ظهرت فهو الذى تحب والا استرحت منه ويقال كان الاشتر قد ثقل على على رضى الله عنه وأبغضه وقلاه فولاه وبعثه فلما قدم قلزم مصر لقى بما يلقى العمال به هناك فشرب شربة عسل فمات فلما أخبر على بذلك قال لله در على ولله در مصر بموت الاشتر فقال ان لله جنودا من عسل أو قال ان لله جنودا من العسل ثم وليها محمد بن أبي بكر الصديق من قبل على رضى الله عنهم وجمع له صلاتها وخراجها فدخلها للنصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين فلقيه قيس بن سعد فقال انه لا يمنعنى تحبى لك عزله اياى ولقد عزلنى عن غير وهن ولا عجز فاحفظ ما أوصيك به يدم صلاح حالك دع معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطاة ومن ضوى اليهم على ما هم عليه لا تكفهم عن رأيهم فان أتوك ولم يفعلوا فاقبلهم وان تخلفوا عنك فلا تطلبهم وانظر هذا الحى من مضر فانت أولى بهم منى فألن لهم جناحك وقرب عليهم مكانك وارفع عنهم حجابك وانظر هذا الحى

من مدلج فدعهم وما غلبوا عليه يكفوا عنك شأنهم وأنزل الناس من بعد على قدر منازلهم فان استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل فان هذا لا ينقصك ولن تفعل انك والله ما علمت لنظهر الخيلاء وتحب الرئاسة وتسارع الى ما هو ساقط عنك والله موفقك فعمل محمد بخلاف ما أوصاه به قيس فبعث الى ابن خديج والخارجة معه يدعوهم الى بيعته فلم يجيبوه فبعث الى دور الخارجة فهدمها ونهب أموالهم وسجن ذراريهم فنصبوا له الحرب وهموا بالنهوض اليه فلما علم أنه لا قوة له بهم أمسك عنهم ثم صالحهم على أن يسيرهم الى معاوية وأن ينصب لهم جسر أنقيوس يجوزون عليه ولا يدخلون الفسطاط ففعلوا ولحقوا بمعاوية فلما أجمع على رضى الله عنه ومعاوية على الحكمين أغفل على أن يشترط على معاوية أن لا يقاتل أهل مصر فلما انصرف على الى العراق بعث معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص رضى الله عنه في جيوش أهل الشام الى مصر فاقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه أهل مصر ودخل عمرو بأهل الشام الفسطاط وتغيب محمد بن أبي بكر فاقبل معاوية بن خديج في رهط ممن يعينه على من كان يمشي في قتل عثمان وطلب ابن أبي بكر فدلتهم عليه امرأة فقال احفظوني في أبي بكر فقال معاوية بن خديج قتلت ثمانين رجلا ممن قدمي في عثمان وأتركك وأنت صاحبه فقتله ثم جعله في جيفة حمار ميت فأحرق بالنار فكانت ولاية محمد بن أبي بكر خمسة أشهر ومقتله لاربع عشرة خلت من صفر سنة ثمان وثلاثين ثم ولي عمرو بن العاص مصر من بعده فاستقبل بولايته هذه الثانية شهر ربيع الاول وجعل اليه الصلاة والخراج وكانت مصر قد جعلها معاوية له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة على مصلحتها ثم خرج الى الحكومة واستخلف على مصر ابنه عبد الله بن عمرو وقتل خارجة بن حذافة ورجع عمرو الى مصر فاقام بها وتعاقد نو ملجم عبد الرحمن وقيس ويزيد على قتل علي رضى الله عنه وعمرو ومعاوية رضى الله عنهما وتواعدوا على ليلة من رمضان سنة أربعين فمضى كل منهم الى صاحبه فلما قتل علي بن أبي طالب رضى الله عنه واستقر الامر لمعاوية كانت مصر جندها وأهل شوكتها عثمانية وكثير من أهلها علوية فلما مات معاوية ومات ابنه يزيد بن معاوية كان على مصر سعيد بن يزيد الازدي على صلاتها فلم يزل أهل مصر على الشنآن له والاعراض عنه والتكبر عليه منذ ولاه يزيد بن معاوية حتى مات يزيد في سنة أربع وستين ودعا عبد الله بن الزبير الى نفسه فقامت الخوارج بمصر في أمره وأظهروا دعوته وكانوا يحسبونه على مذهبهم وأوفدوا منهم وفدا اليه فسار منهم نحو الالفين من مصر وسألوه أن يبعث اليهم بأمير يقومون معه ويوازرونه وكان كريب بن ابرهة الصباح وغيره من أشراف مصر يقولون ماذا نرى من العجب ان هذه الطائفة المكنفة تأمر فينا وتنهى ونحن لا نستطيع أن نرد أمرهم ولحق بابن الزبير ناس كثير من أهل مصر

وكان أول من قدم مصر برأى الخوارج حجر بن الحارث بن قيس المذحجى وقيل حجر بن عمرو ويكنى بابى الورد وشهد مع على صفين ثم صار من الخوارج وحضر مع الحرورية النهروان فخرج وصار الى مصر برأى الخوارج وأقام بها حتى خرج منها الى ابن الزبير فى امارة مسلمة بن مخلد الانصارى على مصر فلما مات يزيد بن معاوية وبويع بن الزبير بعده بالخلافة بعث الى مصر بعبد الرحمن بن جحدم الفهرى فقدمها فى طائفة من الخوارج فوثبوا على سعيد بن يزيد فاعتزلهم واستمر ابن جحدم وكثرت الخوارج بمصر منها ومن قدم من مكة فاظهروا فى مصر التحكيم ودعوا اليه فاستعظم الجند ذلك وبايعه الناس على غل فى قلوب ناس من شيعة بنى أمية منهم كريب ابن ابرهة ومقسم بن بجره وزياد بن حناطة التجيبى وعابس بن سعيد وغيرهم فصار أهل مصر حينئذ ثلاث طوائف علوية وعثمانية وخوارج فلما بويع مروان بن الحكم بالشام فى ذى القعدة سنة أربع وستين كانت شيعة من أهل مصر مع ابن جحدم فكاتبوه سرا حتى أتى مصر فى أشراف كثيرة وبعث ابنه عبد العزيز بن مروان فى جيش الى ايلة ليدخل من هناك مصر وأجمع ابن جحدم على حربه ومنعه فحفر الخندق فى شهر وهو الخندق الذى بالقرافة وبعث بمراكب فى البحر ليخالف الى عمالات أهل الشام وقطع بعثا فى البر وجهز جيشا آخر الى ايلة لمنع عبد العزيز من المسير منها فغرقت المراكب ونجا بعضها وانهزمت الجيوش ونزل مروان عين شمس فخرج اليه ابن جحدم فى أهل مصر فتحاربوا واستحر القتل فقتل من الفريقين خلق كثير ثم ان كريب بن ابرهة وعابس بن سعيد وزياد بن حناطة وعبد الرحمن بن موهب المغافرى دخلوا فى الصلح بين أهل مصر وبين مروان فتم ودخل مروان الى الفسطاط لغرة جمادى الاولى سنة خمس وستين فكانت ولاية ابن جحدم تسعة أشهر ووضع العطاء فبايعه الناس الا نفرا من المغافر قالوا لا نخلع بيعة ابن الزبير فقتل منهم ثمانين رجلا قدمهم رجلا رجلا فضرب أعناقهم وهم يقولون انا قد بايعنا ابن الزبير طائعين فلم نكن ننكث بيعته وضرب عنق الاكدر بن حمام بن عامر سيد لخم وشيخها وحضرهو وأبوه فتح مصر وكانا ممن ثار الى عثمان رضى الله عنه فتنادى الجند قتل الاكدر فلم يبق أحد حتى لبس سلاحه فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفا وخشى مروان وأغلق بابه حتى أتاه كريب بن ابرهة وألقى عليه رداءه وقال للجند انصرفوا أتاله جارفا عطف أحد منهم وانصرفوا الى منازلهم وكان للنصف من جمادى الآخرة ويوم مات عبد الله ابن عمرو بن العاص فلم يستطع أحد أن يخرج بجنازته الى المقبرة لشغب الجند على مروان ومن حينئذ غلبت العثمانية على مصر فتظاهروا فيها بسب على رضى الله عنه وانكانت السنة العلوية والخوارج فلما كانت ولاية قرة بن شريك العبسى على مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة تسعين

خرج الى الاسكندرية فى سنة احدى وتسعين فتعاقدت السرا تمن الخوارج بالاسكندرية على القتل به وكانت عدتهم نحوا من مائة فعقدوا الرئيسهم المهاجر بن أبي المثنى التجيبي أحد بني فهم عليهم عند منارة الاسكندرية وبالقرب منهم رجل يكنى أبا سليمان فبلغ قرة ما عزموا عليه فأتى لهم قبل أن يتفرقوا فاقام بحبسهم فى أصل منارة الاسكندرية وأحضر قرة وجوه الجند فسألهم فأقروا فقتلهم ومضى رجل ممن كان يرى رأيهم الى أبي سليمان فقتله فكان يزيد بن أبي حبيب اذا أراد أن يتكلم بشئ فيه تقية من السلطان تلفت وقال أخذوا أبا سليمان ثم قال الناس كلهم من ذلك اليوم أبو سليمان فلما قال عبد الله بن يحيى الملقب بطالب الحق فى الحجاز على مروان ابن محمد الجعدى قدم الى مصر داعيته ودعا الناس فبايع له ناس من تجيب وغيرهم فبلغ ذلك حسان بن عتاهية صاحب الشرطة فاستخرجهم فقتلهم حوترة بن سهيل الباهلى أمير مصر من قبل مروان بن محمد فلما قتل مروان وانقضت أيام بني أمية ببني العباس فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة خدعت جرة أصحاب المذهب المروانى وهم الذين كانوا يسبون على بن أبي طالب ويتبرؤن منه وصاروا منذ ظهر بنو العباس يخافون القتل ويخشون أن يطلع عليهم أحد الا طائفة كانت بناحية الواحات وغيرها فانهم أقاموا على مذهب المروانية دهرا حتى فنوا ولم يبق لهم الآن بديار مصر وجود ألبتة فلما كان فى امارة حميد بن قحطبة على مصر من قبل أبي جعفر المنصور قدم الى مصر على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبي طالب داعية لابيه وعمه فذكر ذلك لحميد فقال هذا كذب ودس اليه أن تغيب ثم بعث اليه من الغد فلم يجده فكتب بذلك الى أبي جعفر المنصور فعزل حميدا وسخط عليه فى ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومائة وولى يزيد بن حاتم ابن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة فظهرت دعوة بني حسن بن على بمصر وتكلم الناس بها وبايع كثير منهم لعلى بن محمد بن عبد الله وهو أول علوى قدم مصر وقام بأمر دعوته خالد بن سعيد بن ربيعة ابن حبيش الصدفى وكان جده ربيعة بن حبيش من خاصة على بن أبي طالب وشيعته وحضر الدار فى قتل عثمان رضى الله عنه فاستشار خالد أصحابه الذين بايعوا له فأشار عليه بعضهم أن يبيت يزيد ابن حاتم فى العسكر وكان الامراء قد صاروا منذ قدمت عساكر بني العباس ينزلون فى المعسكر الذى بخارج الفسطاط من شماليه وأشار عليه آخرون أن يحوز بيت المال وأن يكون خروجهم فى الجامع فكره خالد أن يبيت يزيد بن حاتم وخشى على اليمانية وخرج منهم رجل قد شهد أمرهم حتى أتى الى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن خديج وهو يومئذ على الفسطاط فخبره أنهم الليلة يخرجون فمضى عبد الله الى يزيد بن حاتم وهو بالعسكر فكان من أمرهم ما كان لعشر من شوال سنة ١٤٥ فانهزموا ثم قدمت الخطباء برأس ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين فى ذى الحجة

من السنة المذكورة الى مصر ونصبه فى المسجد الجامع وقامت الخطباء فذكروا أمره وحمل على بن محمد الى أبى جعفر المنصور وقيل انه اختفى عند عسامة بن عمرو بقرية طره فمضى بها ومات فقبر هناك وحمل عسامة الى العراق فحبس الى أن رده المهدى محمد بن أبى جعفر الى مصر ومازالت شيعة على بمصر الى أن ورد كتاب المتوكل على الله الى مصر يأمر فيه باخراج آل أبى طالب من مصر الى العراق فأخرجهم اسحاق ابن يحيى الخثعمى أمير مصر وفرق فيهم الاموال ليتجملوا بها وأعطى كل رجل ٣٠ دينارا والمرأة ١٥ دينارا فخرجوا لعشر خلون من رجب سنة ٢٣٦ وقدموا العراق فأخرجوا الى المدينة فى شوال منها واستعمر من كان بمصر على رأى العلوية حتى ان يزيد بن عبد الله أمير مصر ضرب رجلا من الجند فى شئ وجب عليه فأقسم عليه بحق الحسن والحسين الاعفاء عنه فزاده ٣٠ درة ورفع ذلك صاحب البريد الى المتوكل فورد الكتاب على يزيد بضرب ذلك الجندى مائة سوط فضربها وحمل بعد ذلك الى العراق فى شوال سنة ثلاث وأربعين ومائتين وتتبع يزيد الرافض فحملهم الى العراق ودل فى شعبان على رجل يقال له محمد بن على بن الحسن بن على بن الحسين ابن على ابن أبى طالب انه بويع له فأحرق الموضع الذى كان به وأخذه فأقر على جمع من الناس بايعوه فضرب بعضهم بالسياط وأخرج العلوى هو وجمع من آل أبى طالب الى العراق فى شهر رمضان ومات المتوكل فى شوال فقام من بعده ابنه محمد المستنصر فورد كتابه الى مصر بأن لا يقبل علوى ضيعة ولا يركب فرسا ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد الا العبد الواحد ومن كان بينه وبين أحد من الطالبيين خصومة من سائر الناس قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة وكتب الى العمال بذلك ومات المستنصر فى ربيع الآخر وقام المستعين فأخرج يزيد ستة رجال من الطالبيين الى العراق فى رمضان سنة خمسين ومائتين ثم أخرج ثمانية منهم فى رجب سنة احدى وخمسين وخرج جابر بن الوليد المدلجى بارض الاسكندرية فى ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين واجتمع اليه كثير من بنى مدلج فبعث اليه محمد بن عبيد الله بن يزيد بجيش من الاسكندرية فهزمهم وظفر بما معهم وقوى أمره وأتاه الناس من كل ناحية وضوى اليه كل من يومى اليه بشدة ونجدة فكان ممن أتاه عبد الله المريسى وكان لصا خبيثا ولحق به جريج النصرانى وكان من شرار النصارى وأولى باسهم ولحق به أبو حرملة فرج النوبى وكان فاتكا فعقد له جابر على سنهور وسخا وشرقيون وبنا فمضى أبو حرملة فى جيش عظيم فاخرج العمال وجبى الخراج ولحق به عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب الذى يقال له ابن الارقط فقوده أبو حرملة وضم اليه الاعراب وولاه بنا وبوصير وسمنود فبعث يزيد أمير مصر بجمع من الاتراك فى جمادى الآخرة فقاتلهم ابن الارقط وقتل منهم

ثم ثبتوا له فانهزم وقتل من أصحابه كثير وأسر منهم كثير ولحق ابن الارقط بأبي حرملة في شرقيون فصار الى عسكر يزيد فانهزم أبو حرملة وقدم مزاحم بن خاقان من العراق في جيش فحارب أبا حرملة حتى أسر في رمضان واستأمن ابن الارقط فأخذ وأخرج الى العراق في ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين ومائتين ففر منهم ثم ظفر به وحبس ثم حمل الى العراق في صفر سنة خمس وخمسين ومائتين بكتاب ورد على أحمد بن طولون ومات أبو حرملة في السجن لاربع بقين من ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وأخذ جابر بعد حروب وحمل الى العراق في رجب سنة أربع وخمسين وخرج في امرة أرجون التركي رجل من العلويين يقال له يغا الاكبر وهو أحمد بن ابراهيم بن عبد الله بن طباطبا ابن اسماعيل بن ابراهيم بن حسن بن حسين بن علي بالصعيد فحاربه أصحاب أرجون وفر منهم فمات ثم خرج يغا الاصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا فيما بين الاسكندرية وبرقة في جمادى الاولى سنة خمس وخمسين ومائتين والامير يومئذ أحمد بن طولون وسار في جمع الى الصعيد فقتل في الحرب وأتي برأسه الى الفسطاط في شعبان وخرج ابن الصوفي العلوي بالصعيد وهو ابراهيم بن محمد بن يحيى ابن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ودخل اسنا في ذي القعدة سنة خمس وخمسين ونهبها وقتل أهلها فبعث اليه ابن طولون بجيش فحاربوه فهزمهم في ربيع الاول سنة ست وخمسين بهو فبعث ابن طولون اليه بجيش آخر فالتقيا بأخميم في ربيع الآخر فانهزم ابن الصوفي وترك جميع مامعه وقتلت رجاله فاقام ابن الصوفي بالواح سنتين ثم خرج الى الاشمونين في المحرم سنة تسع وخمسين وسار الى اسوان لمحاربة أبي عبد الرحمن العمري فظفر به العمري وبجميع جيشه وقتل منهم مقتلة عظيمة ولحق ابن الصوفي باسوان فقطع لاهلها ثلثمائة ألف نخلة فبعث اليه ابن طولون بعثا فاضطرب أمره مع أصحابه فتركهم ومضى الى عيذاب فركب البحر الى مكة فقبض عليه بها وحمل الى ابن طولون فسجنه ثم أطلقه فصار الى المدينة ومات بها وفي امارة هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون أنكر رجل من أهل مصر أن يكون أحد خيرا من أهل البيت فوثبت اليه العامة فضربوه بالسياط يوم الجمعة في جمادى الاولى سنة خمس وثمانين ومائتين وفي امارة ذكا الاعور على مصر كتب على أبواب الجامع العتيق ذكر الصحابة والقرآن فرضيه جمع من الناس وكرهه آخرون فاجتمع الناس في رمضان سنة خمس وثلثمائة الى دار ذكا يتشكرونه على ما أذن لهم فيه فوثب الجند بالناس فنهب قوم وجرح آخرون ومحي ما كتب على أبواب الجامع ونهب الناس في المسجد والاسواق وأفطر الجند يومئذ ومازال أمر الشيعة يقوى بمصر الى أن دخلت سنة خمسين وثلثمائة ففي يوم عاشوراء كانت منازعة بين الجند وبين جماعة من الرعية عند قبر كلثوم العلوية بسبب ذكر السلف والنوح قتل فيها جماعة من الفريقين وتعصب السودان على الرعية فكانوا اذا لقوا أحدا

قالوا لمن خالك فان لم يقل معاوية والا بطشوا به وسطوه ثم كثر القول معاوية خال علي وكان على باب الجامع العتيق شيخان من العامة ينادیان في كل يوم جمعة في وجوه الناس من الخاص والعام معاوية خالي وخال المؤمنين وكاتب الوحي وردیف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان هذا أحسن مايقولونه والا فقد كانوا يقولون معاوية خال علي من هاهنا ويشيرون الى أصل الاذان ويلقبون أبا جعفر مسلما الحسيني فيقولون له ذلك في وجهه وكان بمصر أسود يصيح دائما معاوية خال علي فقتل بتنيس أيام القائد جوهر ولما ورد الخبر بقيام بني حسن بمكة ومحاربتهم الحاج فيها خرج خلق من المصريين في شوال فلقوا كافور الاخشيدي بالبيدان ظاهر مدينة مصر وضجوا وصاحوا معاوية خال علي فقبل أن يبعث النصرة للحاج على الطالبيين وفي شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة أخذ رجل يعرف بابن أبي الليث الملطي ينسب الى التشيع فضرب مائتي صوت ودرة ثم ضرب في شوال خمسمائة سوط ودرة وجعل في عنقه غل وحبس وكان يتفقد في كل يوم لئلا يخفف عنه ويبصق في وجهه فمات في محبسه فحمل ليلا ودفن فمضت جماعة الى قبره ليبشوه وبلغوا الى القبر فمنعهم جماعة من الاخشيدي والكافورية فأبوا وقالوا هذا قبر رافضي فثارت فتنة وضرب جماعة ونهبوا كثيرا حتى تفرق الناس وفي سنة ست وخمسين كتب في صفر على المساجد ذكر الصحابة والتفضيل فأمر الاستاذ كافور الاخشيدي بازالته فحدثه جماعة في اعادة ذكر الصحابة على المساجد فقال ما أحدث في أيامي مالم يكن وما كان في أيام غيري فلا أزيله وما كتب في أيامي أزيله ثم أمر من طاف وأزاله من المساجد كلها ولما دخل جوهر القائد بعساكر المعز لدين الله الى مصر وبنى القاهرة أظهر مذهب الشيعة واذن في جميع المساجد الجامعة وغيرها حي على خير العمل وأعلن بتفضيل علي بن أبي طالب على غيره وجهر بالصلاة عليه وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم فشكا اليه جماعة من أهل المسجد الجامع أمر عجوز عمياء تنشد في الطريق فأمر بها فحبست فسر الرعية بذلك ونادوا بذكر الصحابة ونادوا معاوية خال علي وخال المؤمنين فأرسل جوهر حين بلغه ذلك رجلا الى الجامع فنادى أيها الناس أقلوا القول ودعوا الفضول فانما حبسنا العجوز صيانة لها فلا ينطق أحد الا حل به العقوبة الموجعة ثم أطلق العجوز وفي ربيع الاول سنة اثنتين وستين عزر سليمان بن عروة المحتسب جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا معاوية خال علي بن أبي طالب فهم جوهر أن يحرق رحبة الصيارفة لكن خشي على الجامع وأمر الامام بجامع مصر أن يجهر بالبسملة في الصلاة وكانوا لا يفعلون ذلك وزيد في صلاة الجمعة القنوت في الركعة الثانية وأمر في المواريث بالرد على ذوي الارحام وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم ولا يرث مع الولد الذكر أو الانثى الا الزوج أو الزوجة والابوان والجدة

ولا يرث مع الام الا من يرث مع الولد وخاطب أبو الطاهر محمد بن أحمد قاضي مصر القائد جوهرا في بنت وأخ وانه كان قد حكم قديما للبنت بالنصف وللاخ بالباقي فقال لا أفعل فلما ألح عليه قال يا قاضي هذا عداوة لفاطمة عليها السلام فأمسك أبو الطاهر ولم يراجعه بعد في ذلك وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم فأشار الشهود على القاضي أبي الطاهر أن لا يطلب الهلال لان الصوم والفطر على الرؤية قد زال فانقطع طلب الهلال من مصر وصام القاضي وغيره مع القائد جوهر كما يصوم وافطروا كما يفطر ولما دخل المعز لدين الله الى مصر ونزل بقصره من القاهرة المعزية أمر في رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة فكتب على سائر الاماكن بمدينة مصر خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وفي صفر سنة خمس وستين وثلثمائة جلس علي بن النعمان القاضي بجامع القاهرة المعروف بالجامع الازهر وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت ويعرف هذا المختصر بالاقتصار وكان جمعا عظيما وأثبت أسماء الحاضرين ولما تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله نزار بن المعز رتب في داره العلماء من الادباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى لجميعهم الارزاق وألف كتابا في الفقه ونصب له مجلسا وهو يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل وتجرى بينهم المناظرات وكان يجلس أيضا في يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه ويحضر عنده القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وأصحاب الحديث ووجوه أهل العلم والشهود فاذا انقضى المجلس من القراءة قام الشعراء لانشاد مدائحهم فيه وجعل للفقهاء في شهر رمضان الاطعمة وألف كتابا في الفقه يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله ومن ابنه العزيز بالله وهو مبوب على أبواب الفقه يكون قدره مثل نصف صحيح البخاري ملكته ووقفت عليه وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية وكان يجلس لقراءة هذا الكتاب على الناس بنفسه وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والفضلاء والادباء وأفتى الناس به ودرسوا فيه بالجامع العتيق وأجرى العزيز بالله لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه أرزاقا فانكفيهم في كل شهر وأمر لهم ببناء دار الى جانب الجامع الازهر فاذا كان يوم الجمعة تحاقوا فيه بعد الصلاة الى أن تصلى صلاة العصر وكان لهم من مال الوزير صلة في كل سنة وعدتهم خمسة وثلاثون رجلا وخلع عليهم العزيز بالله في يوم عيد الفطر وحملهم على بغال وفي سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية وفي سنة احدى وثمانين وثلثمائة ضرب رجل بمصر وطيف به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس رحمه الله وفي شهر ربيع الاول سنة خمس وثمانين وثلثمائة جلس القاضي محمد بن النعمان على كرسي بالقصر في القاهرة

لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المقدم له ولاخيه بمصر بالمغرب فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا وفى جمادى الاولى سنة احدى وتسعين وثلثمائة قبض على رجل من أهل الشام سئل عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال لا أعرفه فاعتقله قاضى القضاة الحسن بن النعمان قاضى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على القاهرة المعزية ومصر والشامات والحرمين والمغرب وبعث اليه وهو فى السجن أربعة من الشهود وسألوه فأقر بالنبى صلى الله عليه وسلم وأنه نبى مرسل وسئل عن على بن أبى طالب فقال لا أعرفه فأمر قائد القواد الحسين بن جوهر باحضاره فخلا به ورفق فى القول له فلم يرجع عن انكاره معرفة على بن أبى طالب فطولع الحاكم بامره فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه وصلب وفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة قبض على ثلاثة عشر رجلا وضربوا وشهروا على الجمال وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى وفى سنة خمس وتسعين وثلثمائة قرئ سجل فى الجوامع بمصر والقاهرة والجزيرة بان تلبس النصارى واليهود الغيار والزنار وغيارهم السواد غيار العاصين العباسيين وأن يشدوا الزنار وفيه وقوع وفحش فى حق أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وقرئ سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخيا المجبية كانت لمعاوية بن أبى سفيان ومنعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضى الله عنها ومن المتوكلية المنسوبة الى المتوكل والمنع من عجين الخبز بالرجل والمنع من أكل الدلينس ومن ذبح البقر الا اذا عاقة ماعدا أيام النحر فانه يذبح فيها البقر فقط والوعيد للنخاسين متى باعوا عبدا أو أمة لذمى وقرئ سجل آخر بان يؤذن لصلاة الظهر فى أول الساعة السابعة ويؤذن لصلاة العصر فى أول الساعة التاسعة وقرئ أيضا سجل بالمنع من عمل الفقاع وبيعه فى الاسواق لما يؤثر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه من كراهية شرب الفقاع وضرب فى الطرقات والاسواق بالجرس ونودى أن لا يدخل أحد الحمام الا بمئزر ولا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ولا يباع شئ من السمك بغير قشر ولا يصطاده أحد من الصيادين وقبض على جماعة وجدوا فى الحمام بغير مئزر فضربوا وشهروا وكتب فى صفر من هذه السنة على سائر المساجد وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر والصحراء سب السلف ولعنهم ونقش ذلك ولون بالاصباغ والذهب وعمل ذلك على أبواب الدور والقياسر وأكره الناس على ذلك وتسارع الناس الى الدخول فى الدعوة فجلس لهم قاضى القضاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان فقدموا من سائر النواحى والضياع فكان للرجال يوم الاحد وللنساء يوم الاربعاء وللاشراف وذوى الاقدار يوم الثلاثاء وازدحم الناس على الدخول فى الدعوة فمات عدة من الرجال والنساء ولما وصلت قافلة الحاج هربهم من سب العامة وبطشهم مالا يوصف فانهم أرادوا حمل الحاج

على سب السلف فأبوا فحل بهم مكروه شديد وفي جمادى الآخرة من هذه السنة فتحت دار الحكمة بالقاهرة وجلس فيها القراء وحملت الكتب اليها من خزائن القصور ودخل الناس اليها وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والاطباء وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم ما لم يرمثله مجتمعا وأجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الارزاق السنية وجعل فيها ما يحتاج اليه من الحبر والاقلام والمحابر والورق وفي يوم عاشوراء من سنة ست وتسعين وثلثمائة كان من اجتماع الناس ما جرت به العادة وأعلن بسب السلف فيه فقبض على رجل نودي عليه هذا جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم ومعه من الرعاع ما لا يقع عليه حصر وهم يسبون السلف فلما تم النداء عليه ضرب عنقه واستهل شهر رجب من هذه السنة بيوم الاربعاء فخرج أمر الحاكم بأمر الله أن يؤرخ بيوم الثلاثاء وفي سنة سبع وتسعين وثلثمائة قبض على جماعة ممن يعمل الفقاع ومن السماكين ومن الطباخين وكبست الحمامات فأخذ عدة ممن وجدوا بغير مئزر فضرب الجميع لمخالفتهم الامر وشهروا وفي تاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بأمر الله بمحو ما كتب على المساجد وغيرها من سب السلف وطاف متولي الشرطة وألزم كل أحد بمحو ما كتب على المساجد من ذلك ثم قرئ سجل في ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلثمائة بان لا يحمل شيء من النبيذ والمزر ولا يتظاهر به ولا بشيء من الفقاع والدلينس والسمك الذي لا قشر له والترمس العفن وقرئ سجل في رمضان على سائر المنابر بأن يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون صلاة الخمس الذين فيما جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون يخمس في التكبير على الجنائز الخمسون ولا يمنع من التربيع عليها المربعون يؤذن بحي على خير العمل المؤذنون ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ولا يسب أحد من السلف ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف والحالف منهم بما حلف لكل مسلم مجتهد في دينه اجتهاده والى ربه معاده عنده كتابه وعليه حسابه وفي صفر سنة أربعمائة شهر جماعة بعد ما ضربوا بسبب بيع الفقاع والملوخيا والدلينس والترمس وفي تاسع عشر شهر شوال أمر الحاكم بأمر الله برفع ما كان يؤخذ من الخمس والزكاة والفطرة والنجوى وأبطل قراءة مجالس الحكمة في القصر وأمر برد التثويب في الاذان وأذن للناس في صلاة الضحى وصلاة التراويح وأمر المؤذنين بأسرهم في الآذان بان لا يقولوا حي على خير العمل وأن يقولوا في الاذان للفجر الصلاة خير من النوم ثم أمر في ثاني عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعمائة باعادة قول حي على خير العمل في الاذان وقطع التثويب وترك قولهم الصلاة خير من النوم ومنع من صلاة الضحى وصلاة التراويح وفتح باب الدعوة وأعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت وكان بين المنع من ذلك

والاذن فيه خمسة أشهر وضرب فى جمادى من هذه السنة جماعة وشهروا بيع الملوخيا والسمك الذى لا قشر له وشرب المسكرات وتتبع السكارى فضيق عليهم وفى يوم الثلاثاء سابع عشرى شعبان سنة احدى وأربعمائة وقع قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى الى سائر الشهود والامناء بخروج الامر المعظم بان يكون الصوم يوم الجمعة والعيد يوم الاحد وفى شعبان سنة اثنتين وأربعمائة قرئ سجل يشدد فيه النكير على بيع الملوخيا والفقاع والسمك الذى لا قشر له ومنع النساء من الاجتماع فى المآتم ومن اتباع الجنائز وأحرق الحاكم بأمر الله فى هذا الشهر الزبيب الذى وجد فى مخازن التجار وأحرق ما وجد من الشطرنج وجمع صيادى السمك وحلفهم بالايمان المؤكدة ان لا يصطادوا سمكا بغير قشر ومن فعل ذلك ضربت عنقه وأحرق فى خمسة عشر يوما ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب بلغ ثمن النفقة عليها خمسمائة دينار ومنع من بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها ومنع من اعتصاره وطرح عنبا كثيرا فى الطرقات وأمر بدوسه فامتنع الناس من التظاهر بشئ من العنب فى الاسواق واشتد الامر فيه وغرق منه ما حمل من النيل وأحصى ما بالجيزة من الكروم فقطف ما عليها من العنب وطرح ما جمعه من ذلك تحت أرجل البقر لتدوسه وفعل مثل ذلك فى جهات كثيرة وختم على مخازن العسل وغرق منه فى أربعة أيام خمسة آلاف جرة واحدى وخمسين جرة فيها العسل وغرق من عسل النحل قدر احدى وخمسين زيرا وفى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعمائة اشتد الانكار على الناس بسبب بيع الفقاع والزبيب والسمك الذى لا قشر له وقبض على جماعة وجد عندهم زبيب فضربت أعناقهم وسجنت عدة منهم وأطلقوا وفى شوال اعتقل رجل ثم شهر ونودى عليه هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر ويثير الفتن فاجتمع خلق كثير بباب القصر فاستغاثوا لا طاقة لنا بمخالفة المصريين ولا بمخالفة الحشوية من العوام ولا صبر لنا على ما جرى وكتبوا قصصا فصرفوا ووعدوا بالمجئ فى غد فبات كثير منهم بباب القصر واجتمعوا من الغد فصاحوا وضجوا فخرج اليهم قائد القواد غين فنهاهم وأمرهم عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن يمضوا الى معايشهم فانصرفوا الى قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى وشكوا اليه فتبرم من ذلك فضوا وفيهم من يسب السلف ويعرض بالناس فقرئ سجل بالقصر بالترحم على السلف من الصحابة والنهى عن الخوض فى ذلك وركب مرة فرأى لوحا على قيسارية فيه سب السلف فأنكره وما زال واقفا حتى قلع وضرب بالحرس فى سائر طرقات مصر والقاهرة وقرئ سجل بتتبع الالواح المنصوبة على سائر أبواب القياسر والحوانيت والدور والخانات والارباع المشتملة على ذكر الصحابة والسلف الصالح رحمهم الله بالسب واللعن وقلع ذلك وكسره وتعفية أثره ومحو ما على الحيطان من هذه الكتابة وازالة جميعها من سائر الجهات حتى لا يرى لها أثر فى جدار ولا نقش فى لوح وحذر فيه من المخالفة وهدد بالعقوبة

ثم انتقض ذلك كله وعاد الامر الى ما كان عليه الى أن قتل الخليفة الآمر باحكام الله أبو على المنصور ابن المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد وثار أبو على أحمد الملقب كشيفات ابن الافضل شاهنشاه بن أمير الجيوش واستولى على الوزارة فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة وسجن الحافظ لدين الله أبا الميمون عبد المجيد بن الامير أبى القاسم محمد بن الخليفة المستنصر بالله وأعلن بمذهب الامامية والدعوة للامام المنتظر وضرب دراهم نقشها الله الصمد الامام محمد ورتب فى سنة خمس وعشرين أربعة قضاة اثنان أحدهما امامى والآخر اسماعيلى واثنان أحدهما مالكى والآخر شافعى فحكم كل منهما بمذهبه وورث على مقتضاه وأسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق وأبطل من الاذان حى على خير العمل وقولهم محمد وعلى خير البشر فلما قتل فى المحرم سنة ست وعشرين عاد الامر الى ما كان عليه من مذهب الاسماعيلية ومابرح حتى قدمت عساكر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من دمشق عليها أسد الدين شيركوه وولى وزارة مصر الخليفة العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن الامير يوسف بن الحافظ لدين الله ومات فقام فى الوزارة بعده ابن أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وشرع فى تغيير الدولة وازالتها وجرى على العاضد وأوقع بأمراء الدولة وعساكرها وأنشأ بمدينة مصر مدرسة للفقهاء الشافعية ومدرسة للفقهاء المالكية وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى الشافعى فلم يستنب عنه فى اقليم مصر الا من كان شافعى المذهب فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة والاسماعيلية والامامية حتى فقد من أرض مصر كلها وكذلك كان السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى بن اق سنقر حنفيا فيه تعصب فنشر مذهب أبى حنيفة رحمه الله ببلاد الشام ومنه كثرت الحنفية بمصر وقدم اليها أيضا عدة من بلاد الشرق وبنى لهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية بالقاهرة ومازال مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم تكثر بمصر والشام من حينئذ وأما العقائد فان السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن اسماعيل الاشعرى تلميذ أبى على الجبائى وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الامام الشافعى من القرافة والمدرسة الناصرية التى عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة فاستمر الحال على عقيدة الاشعرى بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضا لادخال محمد بن تومرت رأى الاشعرى اليها حتى انه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد بحيث ان من خالفه ضرب عنقه والامر على ذلك الى اليوم ولم يكن فى الدولة الايوبية بمصر

كثيرة كمذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل ثم اشتهر مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل في آخرها فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري ولي بمصر والقاهرة أربعة قضاة وهم شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي فاستمر ذلك من سنة خمس وستين وستمائة حتى لم يبق في مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الاربعة وعفيدة الاشعري وعملت لاهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الاسلام وعودي من تمذهب بغيرها وأنكر عليه ولم يول قاض ولا قبلت شهادة أحد ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلدا لاحد هذه المذاهب وأفتى فقهاء هذه الامصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها والعمل على هذا الى اليوم (من المقريزي)

في آراء القدماء في حقيقة بحيث جزيرة العرب

اعلم أن بلاد العرب ايالة واسعة مساحة سطحها تساوي ضعف سطح مملكة فرانسا تقريبا وقد قدر أهل هذا العصر من علماء أوروبا سطحها بمائة وستة وعشرين ألف فرسخ مربع يحيط بها الماء من ثلاث جهات وتتصل من الجهة الرابعة بافريقه وآسيا وهي منعزلة عنهما من الجهات الثلاث في الجملة وحدودها من الشرق والجنوب والغرب الخليج الفارسي وبحر الهند والبحر الاحمر ومن الشمال الغربي برزخ السويس وأما خط نهايتها من الشمال فبداء غزة وهي مدينة من اقليم فلسطين على ساحل البحر الابيض المتوسط فيمر بجنوب بحيرة البحر الميت وبشرق نهر الاردن أي نهر الشريعة ثم يمتد ذلك الخط من دمشق الى نهر الفرات حتى ينتهي الى الخليج الفارسي (١) وكان القدماء لا يعرفون وصف داخل بلاد العرب بل لم يكن لليونان والرومان ابتداء دراية تامة بتقسيمها الى أقسام حتى ان المؤرخ هيرودوطوس اليوناني الذي ساح كثيرا في البلاد وجمع كثيرا من الفوائد

---

(١) اذا أردت ان تعرف جغرافية جميع بلاد العرب فراجع كتاب كرل ريتر فقد ذكر في المجلد الثالث عشر من مؤلفه المطول أسماء جميع المؤلفين الذين كتبوا قبله في هذه المسئلة وكتاب نيابهر المتضمن تخطيط بلاد العرب ومقدمة المؤلف بوشنغ التي ذكرها الجغرافية قسم آسيا وكتاب كرلوس فرستر المؤلف بالانكليزية في جغرافية بلاد العرب في الازمان العتيقة والكتاب المسمى بالابحاث الجغرافية والتاريخية المتعلقة ببلاد العرب تأليف موسيو جومار (سنة ١٨٣٩ ميلادية بمدينة باريس) فانه يحتوي بغاية الدقة والضبط على تلخيص مؤلفات الافرنج في هذا الزمان المتعلقة بجغرافية بلاد العرب

وراجع أيضا صحيفة ٢٤٨ من المجلد الثاني من ترجمة تأليف هميلدا النسماوي الى اللغة الفرنساوية في وصف القاموس أي العالم اه

النافعة المتعلقة باخلاق قدماء كل من المصريين وأهل ازربيجان قد اقتصر على ذكر عبارات قليلة في بحيثجزيرة العرب عند الكلام عليها ثم جاء بعده كل من ايرانستينس واغاثرشيدس وبليناس وأريان بفتح الهمزة وكسر الراء مشددة واسترابون وديودور السيسيلياني فدونوا لنا في شأنها فوائد أكثر مما ذكره ذلك المؤرخ ولكنهم عزوا في غالب عباراتهم الى بلاد العرب ما يجلب اليها من محصولات الهندستان للتجارة

والظاهر أن بطليموس الفالوذي كان أعلم المؤلفين الاقدمين جميعا بحقيقة حال بلاد العرب ولعله تيسر له الوقوف على اخبار صحيحة في شأنها من حيث ان قربها من ايالة مصر جعلها مفتوحة لمن أراد أن يعرف حقيقة حالها من سكان شواطئ النيل ومع ذلك فما وصل الينا من تقسيماته لها ليس الا اجتهاديا ولذلك لم يعتمد تقسيمه أحد من علماء الجغرافية من الغرب حيث قسم بلاد العرب الى ثلاثة أقطار كبار وهي الحجاز ونجد واليمن وهي ثلاثة أسماء تدل في الواقع ونفس الامر دلالة كافية على طبيعة الاقطار المسماة بها بالنظر الى تخطيطها العام فاما القسم الاول وهو الحجاز فجعله شاملا للجيثجزيرة التي بين الخليجين المتفرعين من البحر الاحمر في نهايته الشمالية وأما الثاني وهو نجد فجعله ممتدا من شرقي هذين الخليجين الى حدود الشام وميزوبوتامية أي (جزيرة النهرين دجله والفرات) ومن الجهة الشرقية من مبدأ طول الخليج الفارسي الى بحر الهند وأما ما عداهما أعني الجزء الجنوبي من بلاد العرب فجعله عبارة عن بلاد اليمن وعد فيها في زمانه ستة وخمسين قوما مختلفة ومائة وستا وستين ما بين مدن وميناءات وقرى منها ست مدائن كبيرة وخمس مدائن ملوكية (١) ولم تتفق كلمة المؤلفين في تحديد امتداد هذا القسم الثالث فقد بالغ بعضهم في تقديره مبالغة خارجة عن حد القياس وحصره الآخرون بين الجبال المجاورة للاقيانوس الهندي (بحر الهند) وانه ليسهل على الانسان ادراك الاختلاف الذي بين هذين القولين بمجرد امعان الفكر والنظر في تلك المسئلة من غير اعتبار ما قيل فيها انها لحق وأقول ان آراء العرب في تقسيم تحديد تلك الجيثجزيرة هو الاحسن فانها توافق جميع ما دون من تواريخ العرب في سائر الاعصر وتطابق شكل البلاد مطابقة تامة

فاما حدودها العامة فهي الحدود التي قد أسلفنا ذكرها غير أنها لا تشمل على رأيهم بجيثجزيرة طورسينا ولا صحارى كلده والشام كما يعلم من ترجمة جغرافية الادريسي (٢)

---

(١) لا بأس بأن تقابل ما ذكره بطليموس الفالوذي في المقالة الخامسة والمقالة السادسة من جغرافيته بما ذكره استرابون في المقالة السابعة عشر من جغرافيته اه

(٢) راجع صحيفتي ١٣٠ و ١٤٧ وما بعدهما من ترجمة الخواجه أميد يوبرت لكتاب جغرافية الادريسي اه

(فى ذكر ما اختاره العرب فى تقسيم بلادهم والكلام على بحيثجزيرة طورسينا وصحارى الشام وكلده وغيرهما وبلاد العرب الحقيقية)

أما بحيثجزيرة طورسينا فهى منحصرة ما بين خليج السويس وخليج ايلة وتمتد من جهة الشمال الى البحر الميت (أى بحيرة اسفلتيت) وكانت براريها الرحبة مسكنا للعبريين بعد خروجهم من مصر ثم صارت فيما بعد اقليما رومانيا يسمى بفلسطين الثالثه

وكانت مدينة بترة (١) كرسى حكومته وكانت جبال طورسينا وحوريب محالى بالجملة من الوقائع والحوادث العظيمة المذكورة فى التوراة وأما صحارى الشام والجزيرة وكلده (وتعرف المواضع الثلثة الآن بصحارى دمشق وحلب وبغداد وبصرى) فانها تمنع سكان أناضولى (آسيا الصغرى) وبلاد الفرس (العجم) من الوصول الى بحيثجزيرة العرب وكان افقار أرضها يقتضى زهادة الملوك فلم تحتج فيها لو لم يكن بها طريق للمارين بالمتاجر فان المرور من تلك المفاوز كان يختصر الطريق اختصارا كبيرا للتجار الناقلين لمحصولات الهندستان الى بلاد أوروبا وكذلك طريق التجار الناقلين الى الامم الشرقية محصولات بلاد اليونان وبلاد ايطاليا وبيان ذلك ان الانسان اذا سافر من مصب نهر الفرات على طريق مستقيم الى دمشق يصل من هنالك بسهولة الى ميناء البحر الابيض المتوسط بخلاف ما اذا سافر فى النهر المذكور صاعدا جهة جبال ارمينيه فانه يجبر على اجتيازها ولابد له أيضا من المرور بطول جميع الاناضول فتكون مصاريف ذلك السفر جسيمة جدا فهذا هو السبب الاكبر فى كون مدينة بالمرة أى (تدمر) المبنية فى تلك الصحراء عينها كانت فى سالف الزمان ذات أهمية عظيمة جدا فكانت تحمى القوافل التجاريه وتحقق الامنية للمنقولات من المتاجر ولما خربها الجيوش الرومانيه صارت العربان بالتدريج هم أصحاب الحكم على هاتيك الطرق الموصلة ما بين المشرق والمغرب ولما كانوا متعودين على المعيشة البدوية أى التنزول والارتحال

---

(١) قد عثرنا على تخطيط عجيب الوصف جدا لمدينة بترة أو بطره فى ضمن تاريخ الممالك سلاطين مصر والشام المتخذوه العلامة المقريزى وترجمه الخواجه كتومير الى اللغة الفرنساوية فراجع من ترجمته صحيفة ٢٣٦ وما بعدها من الجزء الثانى من المجلد الذى وقد كانت بصدد مناخ الطريق السارة وسط صحراء بلاد العرب وكانت القوافل المسافرة من دمشق الى مكة أو الراجعة من مكة وسائر جموع التجار وجميع الجيوش التى كانت تسافر من تحت بلاد الشام الى تحت بلاد مصر تذبطها قهرا عنها من المرور من جنب هذه المدينة أو من ضواحيها وانما كان رجل واحد يقعد وسط درب من الدروب التى فى تلك الاراضى المنقطعة كان يمكنه أن يقطع الدرب على مائة فارس فلا يستطيعون المرور به وراجع أيضا اذا أردت تخطيط هذه الولاية كتاب الخواجه برو وكتاب المسمى تخطيط الارض المقدسة وكتاب ارباى وكتاب منجلس باللغة الانكليزية فى الكلام على مصر والنوبه وكتاب بركهردا المسمى بالسياحة فى بلاد الشام وغير ذلك من الكتب التى دونتها الافرنج

عارفين حقيقة قواهم الحربية صاروا ملوكا يتصرفون كما شاؤا فى تلك البقاع التى لم ينازعهم فيها أحد بعد ذلك ثم ظهر فى تلك الاقطار تدريجا مملكة الحيرة والانبار وقبيلة النبط (١) ذات الشوكة وقبائل غسان

وفى خلف تلك البرارى من جهة الجنوب بلاد العرب الحقيقية وتنقسم الى ثمانية أقاليم (الاول) اقليم الحجاز وهو فى الجنوب الشرقى من بحيث جزيرة طور سينا وبطول ساحل البحر الاحمر (الثانى) اقليم اليمن وهو فى جنوب الحجاز (الثالث) اقليم حضرموت وهو على ساحل البحر الهندى وفى شرق اليمن (الرابع) اقليم مهره وهو فى شرق حضرموت (الخامس) اقليم عمان ويتصل به من جهة الشمال الخليج الفارسى ومن الجنوب والشرق بحر الهند وحده من الجنوب الغربى اقليم مهرة (السادس) اقليم الحسا ويسمى أيضا اقليم البحرين بسبب أهمية الجزائر التى تجاوره ولامتداده بطول الخليج الفارسى من ابتداء اقليم عمان الى نهر الفرات (السابع) اقليم نجد وهو فى جنوب صحارى الشام وشاغل جميع الجزء الاوسط من بحيث جزيرة العرب أعنى ما بين الحجاز والحسا واقليم اليمامة أو العروض الذى كان به مدينة هجر وغالبه هضاب رمليه (الثامن) اقليم الاحقاف وهو بين عمان والحسا ونجد وحضرموت ومهرة وانا نعرف الآن وصف جميع هذه الاقاليم على حد سواء لان السياحين (٢) من الفرنج وان وصلوا الى تخطيط بعض تلك الاقاليم لم يجدوا سبيلا الى تخطيط البعض الآخر وهنالك مانع أكبر من ذلك وهو ان التآليف والرسوم التى عملها الافرنج الى أيامنا هذه فى خصوص بلاد الحجاز واليمن اللذين تفرغوا لهما أكثر من غيرهما لم تزل مشتملة على مواطن كثيرة خلية من التخطيط بل لم تبين حدودهما بالضبط والدقة الابعد الجهد

---

(١) قد ذكر الخواجه كترمير فى تذكرته التى ضمنها الكلام على النبط (وطبعها وأشهرها سنة ١٨٣٥ ميلاديه) فوائد هى أكمل وأتم مما حكى فى شأن هؤلاء القوم وكان استمداده اياها من كلام المقريزى والمسعودى وابن خلدون وغيرهم

(٢) راجع صحيفة ٩٣ من كتاب الخواجه جومار المسمى بالابحاث الجغرافيه وكتاب تخطيط بلاد العرب تأليف الخواجه بركهرد وقد ذكر الخواجه ابريس فيما نثره من مطبوع ترجمته لكتاب بركهرد المذكور أكثر من ثلاثين سياحة وصفيه لمؤلفين من الفرنج منها ما هو باللغة البرتغاليه أو اللاطينية أو الفرنساويه ومنها ما هو بالالمانية أو الانكليزية وغير ذلك تتضمن تخطيط بحيث جزيرة العرب وأخبارها ويمكن أن نعد من هؤلاء السياحين المخاطرين بأنفسهم فى هذه الاعصر الاخيرة الخواجه سيتزان أكبر مخاطر حيث لم يخش من اظهاره الدخول فى دين الاسلام حتى توصل الى الجولان فى داخل البلاد العربية وكذلك القبطان سيرايه الذى سار من أحد خليجى بلاد العرب الى الخليج الآخر وكذلك موسيو ونسزو والخواجه بادیه والخواجه بركهرد الذى سمى أولهم نفسه باسم الشيخ منصور والثانى باسم الشيخ على والثالث باسم الشيخ ابراهيم وغير ذلك من الفرنج المتنكرين لبلوغ مقصدهم وهى معرفة بلاد العرب حق المعرفة

حتى ان الفرنج كانوا يجهلون أيضا فى هذا العصر الاخير وجود بلاد رحبة تسمى عسيرا وهى متصلة بكل من الاقليمين المذكورين و يعمرها قوم أولو عزم واقدام (١) على الحرب فاذا كان هذا حال معرفتهم بسواحل البحر الاحمر الذى يسهل الدخول فيه بسبب وضعه الطبيعى فما بالك بداخل بلاد العرب الذى لم يطلع على جميع طوله الا افرنجى واحد وهو (الخواجه سيتزان) مرة واحدة حيث جابه من الخليج الغربى الى الخليج الشرقى أى من سواحلها الجنوبية والشرقية التى قد شرعت الانجليز الآن فى أخذ رسمها فى الجملة (٢)

فى تخطيط الحجاز

أقول ان وصف الحجاز يجذب النفوس و يشوقها اليه أكثر من غيره لاشتماله على أعظم مدائن بلاد العرب وهما مكة المشرفة والمدينة المنورة اسماه قديما يثرب فاما مكة وهى التى كان فيها مسقط رأس النبى محمد صلى الله عليه وسلم وكانت تسمى فى قديم الزمان مكوراية فانها من منذ عدة قرون كانت محلا تحج اليها الناس وتقصده للسجود فى هيكل الكعبة وأمام حجر اسود يقولون انه نزلت به ملائكة من السماء فى زمن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأما المدينة المنورة فلا بد لها من أن تكون مقارنة لمكة ولما كان هاتان المدينتان منشأتين داخل تلك الاراضى لم يكن لهما من الارض المحيطة بهما ما يكفى فى قوت سكانهما فكانتا يستمدان ما يلزم لهما من المؤنة من مدينتين آخرين على البحر الاحمر كانتا مينتين لهما الاولى ينبع وهى الميناء الموصلة الى المدينة والثانية جده وهى الميناء الموصلة الى مكة و يتخلل أرض الحجاز كثبان رمال وآكام خصبة وهى المساكن المعتادة للقبائل وحولها قرى وضياع وفى تلك الآكام قلاع ذات ملجأ أمين عند هجوم الاعداء عليهم و ينتج منحدراتها بعض حبوب وأثمار وكلأ للمواشى وعيون ماء نابعة ويقرب احدى تلك الآكام

---

(١) ان المسيو جومار هو الذى قد عرفنا ببلاد عسير فى كتابه المسمى بالابحاث الجغرافية وهو الذى صور خريطتها ولا بأس بأن يقابلها القارئ بالخريطة التى صورها الخواجه قلندين فى ضمن الاطلس الذى ضمه الى وصف سياحته فى المشرق وأن يراجع أيضا خريطة البحر الاحمر من فوق تغرجدة تصوير مسيو مورسيای الانكليزى وغير ذلك من الخرائط وكذلك تأليف مسيو تامیزیه المسمى بالسياحة فى بلاد العرب الذى اشتهر سنة ١٨٤٠ ميلاديه (الموافق سنة ١٢٥٦ هجريه)

(٢) راجع من الكتاب المسمى بجرنال جمعية الجغرافيين بمدينة لوندره كلا من المجلد الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع فقد ذكر فيها فوائد وأخبار مفيدة تتعلق بالاستكشافات التى فعلتها ضباط بحارة الدولة الانكليزية وانا نرى التخطيط الذى ذكره القبطان استافرد بلزورث هينس للسواحل الجنوبية من بلاد العرب أولها وأجلها فائدة وراجع أيضا سياحة الخواجه كروتندان من مدينة تخا الى مدينة صنعاء وسياحة الخواجه ولسند فى سواحل عمان وغير ذلك

مدينة الطائف وهي بستان مكة الذي لفواكهه شهرة عظيمة ويلحق بالحجاز أرض تهامة وهي البلاد الممتدة من سفح الجبال الى البحر وفيها مدينة قنفده غير أن علماء الجغرافيا لا يطلقون اسم تهامه الا على جميع الساحل لمقابلته بنجد الذي معناه المحل المرتفع المتجوّن في داخل الارض ويقولون ان تهامة الحجاز غير تهامة عسير وتهامة اليمن اللتين مبدؤهما من خولان الى عدن (١)

في وصف اقليم اليمن

يطلق لفظ اليمن على الجزء الجنوبي من جزيرة العرب وانما يسمى بذلك لشهرته بالبركة واليمن وفي شماله بلاد عسير ولما كانت سكانه تخالط على الدوام كلا من المصريين والاتيوبيين والفرس وجميع الامم التي تسافر سفنها في بحر الهند سلكوا طريقة منتظمة في حكومتهم من منذ احقاب وكان القدماء يسمونهم بني حمير بكسر الحاء وسكون الميم وفتح المثناة التحتية ولم يكن لهم اشتغال بالفلاحة والتجارة ومع ذلك فلم يعثروا على محصول أرضهم الحقيقي الا في آخر الزمان ألا وهو البن الذي قد عمت تجارته جميع أسواق الدنيا فلو كان عندهم مهارة أكثر مما هم عليه في استعمال دواليب الفلاحة وآلاتها وكان لهم اختراع طريقة في ري الارض وسقيها أحسن من الطريقة التي اعتادوها لامكنهم أن يزيدوا أيضا محصول البن الذي هو ينبوع غناهم فان اعتدال مزاج ذلك القطر وارتفاع أراضيه ورطوبتها تعين على نمو شجرة البن أكثر من نموها في غيره من البلاد بل فيه الآن عدة مدن أصل رفاهيتها تجارة البن فقط وهي مخا وحديده ولديه وعدن وكان ينقل أيضا من مينات جزيرة العرب تبر ومواد عطرية زكية الرائحة الى البلاد الاجنبية ولكن العرب يستمدون من جزائر بحر الهند معظم المعادن النفيسة والبهارات الزكية التي يبعثون بها الى البلاد الاخر بواسطة الخليج العربي والخليج الفارسي وتعد أيضا في جملة المدائن باليمن مدينة سبا المسماة أيضا مارب ومدينة صنعا التي كانت تنافس مكة مدة قرون عديدة في الاختصاص بلقب تخت جزيرة العرب حتى ان الملوك الذين كانوا حاكمين على اليمن وهم التبابعة ومن خلفهم عليها من عمال الفرس والحبشة كانوا يتخذونها دار اقامتهم وهي الآن أيضا دار اقامة أقوى أمراء اليمن شوكة

(١) قد وصفنا الآن مدينة عدن التي هم الآن مستولون عليها بانها قرية متهدمة ليس فيها من السكان الاستمائة نفس (كما صرح به الخواجه هينس في الصحيفة ١٣ من كتابه) وان الانسان اذا طاف برأس مرتيج شاهدها على بعد وهي محاطة من جهة البر بآكام محدودبة كالتلال والجزء الشرقي منها مطل على البحر وتجاهها على خط مستقيم جزيرة صخرية محصنة تسمى جزيرة سيره وهي المحامية والمانعة بتحصيناتها عن خليج أوجون عدن وان مدينة عدن منحكمة بوضعها على بغاز البحر الاحمر فما أحسن وضعها وانه ليسهل تجديد الاستحكامات القديمة التي كانت تتحصن بها في القرن السادس عشر بعد الميلاد لمنع البرتغاليين من الوصول الى مقاصدهم وراجع صحيفة ٤٨٤ من المجلد الاول وصحيفة ٧١ من المجلد الثاني من تأليف الخواجه لافيتو الذي سماه بتاريخ استكشافات البرتغاليين وفتوحاتهم وغير ذلك من الكتب

فى وصف اقليم حضرموت ومهرة وعمان والحسا والاحقاف ونجد

أما اقليم حضرموت الذى منه مدينتا ظفار وشبيان فانه يتصل باليمن ومزاج قطره كمزاجه تقريبا ويشترك معه فى مزاياه الطبيعية وكان القدماء يرغبون رغبة كبيرة فى العود الغاقلى الذى ينتج فى ذلك الاقليم. وأما اقليم مهرة فانه أقل منه خصوبة فتستعير سكانه وسائل معيشتهم واحتياجاتهم من البلاد الاخر والبحر فى هذا المكان كثير السمك جدا حتى انه ليتحصل من سمكه ما تقتات به الموانى فضلا عما يقتات به الناس. وأما اقليم عمان فانه بالنظر لوضعه تجاه الهندستان كان يمكن أهله أن يستجلبوا منها جميع محصولاتها لو كان عندهم شئ يصلح للمقايضة به ولكن من سوء حظ الاقليم المذكور انه لا ينتج منه الا القليل من النحاس والاسرب والتمر وقليل من البقول ومن ثم لم يحظ بالمظهر التجارى العظيم الذى كان يكسبه له حسن وضعه بلاشك. وأما اقليم الحسا فيشتمل جميع ساحل الخليج الفارسى من ابتداء أرض عمان الى بصرى ويبدو منه للمسافرين فى البحر تجاه سواحله أسوأ المناظر كآبة وخرابا غير أنه اذا جاء فصل غوص البحر لاخراج اللؤلؤ تغير جميع منظره وصار مركز تجارة عظيمة وسبب ذلك أن القبائل الساكنة عادة فى داخل البلاد تبادر فى ذلك الاوان بالمجىء الى سواحل البحر ليتخالطوا ويتعاملوا مع سكان السواحل وسكان جزائر البحرين فينزل اذذاك ببلدة القطيف والحسا والقطا وجرين (بكسر الجيم وفتح الراء وتشديد المثناة التحتية) أفواج من ذوى الحاجات والهرج وقلة الانتظام بعد ان كانت قبل هذا الفصل خالية من السكان فاذا انقضى زمان غوص اللؤلؤ رحلت تلك القبائل وتركت تلك المدائن وذهب التجار بمتاجرهم الى أسواق الهندستان وبلاد الفرس ولا يصير اقليم الحسا بعد ذلك الا بلقعا رحبا (١)

والى هنا قد فرغنا من الكلام على الستة أقاليم البحرية من بحيث جزيرة العرب وهى اقليم الحجاز واليمن وحضرموت ومهرة وعمان والحسا. وأما الاقليمان الباقيان فيمتدان فى داخلها الاول اقليم الاحقاف الذى هو ايالة مقفرة يلحق بها فى بعض الكتب أرض اليمامة وحاله مجهول بالكلية عند الافرنج والثانى اقليم نجد ونعرف انه يشتمل على عدد كثير من الواحات وأن فيه مراعى نفيسة وأن خيله وجماله مشهورة بالقوة الا أن هذه البلاد لم يصفها أحد فى الزمن السالف وصفا تاما (٢)

(غاية الارب فى تاريخ العرب)

---

(١) راجع صحيفة ٢٩٤ من كتاب نيابهر المسمى بتخطيط بلاد العرب ويمكن أن يطلع القارئ فى ذلك الكتاب على توضيحات كثيرة مفيدة تتعلق بمحصولات بلاد العرب وتجارتها

(٢) قد نص نيابهر فى صحيفة ٢٩٦ من كتابه على شهرة اقليم العروض ومدينة الدرعية فى بلاد نجد وعلى شهرة اقليم المخرج المنتهى الى بلاد اليمن والمشتمل على مدينة اليمامه

ذكر فتح مصر

قيل فى هذه السنة فتحت مصر فى قول بعضهم على يد عمرو بن العاص والاسكندرية أيضا وقيل فتحت الاسكندرية سنة خمس وعشرين وقيل فتحت مصر سنة ست عشرة فى ربيع الاول وبالجملة فينبغى أن يكون فتحها قبل عام الرمادة لان عمرو بن العاص حمل الطعام فى بحر القلزم من مصر الى المدينة والله أعلم وقيل غير ذلك وأما فتحها فانه لما فتح عمر بيت المقدس وأقام به أياما وأمضى عمرو بن العاص الى مصر واتبعه الزبير بن العوام فأخذ المسلمون باب اليون وساروا الى مصر فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الاسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فارسل اليهم لاتعجلوا حتى نعذر اليكم وليبرز الى أبو مريم وأبو مريام فكفوا وخرجا اليه فدعاهما الى الاسلام أو الجزية وأخبرهما بوصية النبى صلى الله عليه وسلم بأهل مصر بسبب هاجر أم اسماعيل عليه السلام فقالوا قرابة بعيدة لا يصل مثلها الى الانبياء آمنا حتى نرجع اليك فقال عمرو مثلى لا يخدع ولكنى أؤجلكم ثلاثا لتنظروا فقالا زدنا فزادهم يوما فرجعا الى المقوقس فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم فقال لاهل مصر أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم فلم يفجأ عمرا الا البيات وهو على عدة فلقوه فقتل ارطبون وكثير ممن معه وانهزم الباقون وسار عمرو والزبير الى عين الشمس وبها جمعهم وبعث الى فرما أبرهة بن الصباح وبعث عوف بن مالك الى الاسكندرية فنزل عليها فيل وكان الاسكندر وفرما أخوين ونزل عمرو بعين الشمس فقال أهل مصر لملكهم ما تريد الا قتال قوم هزموا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم فلا تعرض لهم ولا تعرضنا وذلك فى اليوم الرابع وناهدوهم وقاتلوهم فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا جال المسلمون فذمرهم عمرو فقال لهم رجل من اليمن أتاكم بخلق من حديد فقال له عمرو أسكت انما أنت كلب قال فأنت أمير الكلاب فنادى عمرو باصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فأجابوه فقال تقدموا فيكم ينصر الله فتقدموا وفيهم أبو برذة وأبو برزة وتبعهم الناس وفتح الله على المسلمين وظفروا وهزموا المشركين فارتقى الزبير بن العوام سورها فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو وخرجوا اليهم صالحين فقبل منهم ونزل الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم فعقدوا لهما بعدما أشرفوا على الهلكة فاجروا ما أخذوا عنوة مجرى الصلح فصاروا ذمة وأجروا من دخل فى صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه واجتمعت خيول المسلمين بمصر ونوا الفسطاط ونزلوه وجاء أبو مريم وأبو مريام الى عمرو وطلبا منه السبايا التى أصيبت بعد المعركة فطردهما فقالا كل شئ أصبتموه منذ فارقناكم الى أن رجعنا اليكم ففى ذمة فقال عمرو لهما أتغيرون علينا وتكونون فى ذمة قالا نعم فقسم عمرو بن العاص السبى على الناس

وتفرق فى بلدان العرب وبعث بالاخماس الى عمر بن الخطاب ومعها وفد فاخبروا عمر بن الخطاب بحالهم كله وبما قال أبو مريم فرد عمر عليهم سبي من لم يقاتلهم فى تلك الايام الاربعة وترك سبي من قاتلهم فردوهم وحضرت القبط باب عمرو وبلغ عمر أنهم يقولون ما أرث العرب مارأينا مثلنا دان لهم نخاف أن يطمعهم ذلك فأمر بجزور فطبخت ودعا أمراء الاجناد فاعلموا أصحابهم فحضروا عنده وأكلوا أكلا عربيا اتشكوا وحشوا وهم فى العباء بغير سلاح فازداد طمعهم وأمر المسلمين أن يحضروا الغد فى باب مصر واحد يتهم ففعلوا وأذن لاهل مصر فرأوا شيأ غير مارأوا بالامس وقام عليهم القوام بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر فارتاب القبط وبعث أيضا الى المسلمين تسلحوا للعرض غدا وأذن لهم فعرضهم عليهم وقال لهم علمت حالكم حين رأيتم اقتصاد العرب فخشيت أن تهلكوا فاحببت أن أريكم حالهم فى أرضهم كيف كانت ثم حالهم فى أرضكم ثم حالهم فى الحرب فقد رأيتم ظفرهم بكم وذلك عيشهم وقد كلبوا على بلادكم بما نالوا فى اليوم الثانى فأردت أن تعلموا أن مارأيتم فى اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثانى وراجع الى عيش اليوم الاول فتفرقوا وهم يقولون لقد رمتكم العرب برجلهم وبلغ عمر ذلك فقال والله ان حربه لمنية مالها سطوة ولا صورة كسورات الحروب من غيره ثم ان عمرا سار الى الاسكندرية وكان من بين الاسكندرية والفسطاط من الروم والقبط قد تجمعوا له وقالوا نغزوه قبل أن يغزونا ويروم الاسكندرية فالتقوا واقتتلوا فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وسار حتى بلغ الاسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله فأرسل المقوقس الى عمرو يسأله الهدنة الى مدة فلم يجبه الى ذلك وقال لقد لقينا ملككم الاكبر هرقل فكان منه مابلغكم فقال المقوقس لاصحابه صدق فنحن أولى بالاذعان فاغلظوا له فى القول وامتنعوا فقاتلهم المسلمون وحصروهم ثلاثة أشهر وفتحها عمرو عنوة وغنم مافيها وجعلهم ذمة وقيل ان المقوقس صالح عمرا على اثنى عشر ألف دينار على أن يخرج من الاسكندرية من أراد الخروج ويقيم من أراد القيام وجعل فيها عمرو جندا ولما فتحت مصر غزوا النوبة فرجع المسلمون بالجراحات وذهاب الحدق لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق فلما ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر أيام عثمان صالحهم على هدية عدة روس فى كل سنة ويهدى اليهم المسلمون كل سنة طعاما مسمى وكسوة وأمضى ذلك الصلح عثمان ومن بعده من ولاة الامور وقيل ان المسلمين لما انتهوا الى بابليون وقد بلغت سبايا هم الى اليمن أرسل صاحبهم الى عمرو انى كنت أخرج الجزية الى من هو أبغض الى منكم فارس والروم فان أحببت الجزية على أن ترد ما سبيتم من أرضى فعلت فكتب عمرو الى عمر يستأذنه فى ذلك ورفعوا الحرب الى أن يرد كتاب عمر فورد الجواب من عمر لعمري جزية قائمة أحب الينا من غنيمة تقسم ثم كأنها لم تكن وأما السبي فان أعطاك ملكهم الجزى على أن تخيروا

من فى أيديكم منهم بين الاسلام ودين قومه فمن اختار الاسلام فهو من المسلمين ومن اختار دين قومه فضع عليه الجزية وأما من تفرق فى البلدان فانا لا نقدر على ردهم فعل فعرض عمر ذلك على صاحب الاسكندرية فاجاب اليه فجمع السبى واجتمعت النصارى وخيروهم واحدا واحدا فمن اختار المسلمين كبروا ومن اختار النصارى جزوا وصار عليه جزية حتى فرغوا وكان من السبى أبو مريم عبد الله بن عبد الرحمن فاختار الاسلام وصار عريف زيد وكان ملوك بنى أمية يقولون ان مصر دخلت عنوة وأهلها عبيدنا نديرعليهم كيف شئنا ولم يكن كذلك

(من تاريخ الكامل لابن الاثير)

ذكر فتوح الشام

قيل فى سنة ثلاث عشرة وجه أبو بكر الجنود الى الشام بعد عوده من الحج فبعث خالد بن سعيد بن العاص وقيل انما سيره لما سير خالد بن الوليد الى العراق وكان أول لواء عقده الى الشام لواء خالد ثم عزله قبل أن يسير وكان سبب عزله أنه تربص ببيعة أبى بكر شهرين ولقى على بن أبى طالب وعثمان بن عفان فقالا يا أبا الحسن يا بنى عبد مناف أغلبتم عليها فقال على أمغالبة ترى أم خلافة فأما أبو بكر فلم يحقدها عليه وأما عمر فاضطغنها عليه فلما ولاه أبو بكر لم يزل به عمر حتى عزله عن الامارة وجعله ردءا للمسلمين بتيماء وأمره أن لا يفارقها الا بامره وأن يدعو من حوله من العرب الا من ارتد وأن لا يقاتل الا من قاتله فاجتمع اليه جموع كثيرة وبلغ خبره الروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام من بهرا وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام فكتب خالد بن سعيد الى أبى بكر بذلك فكتب اليه أبو بكر أقدم ولا تقتحمن فسار اليهم فلما دنا منهم تفرقوا فنزل منزالهم وكتب الى أبى بكر بذلك فأمره بالاقدام بحيث لا يؤتى من خلفه فسار حتى جاز قليلا ونزل فسار اليه بطريق الروم يدعى باهان فقاتله فهزمه وقتل من جنده فكتب خالد الى أبى بكر يستمده وكان قد قدم على أبى بكر أوائل مستنفرى اليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم عكرمة ابن أبى جهل فيمن معه من تهامة وعمان والبحرين واليمن فكتب لهم أبو بكر الى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل فكله مستبدل فسمى جيش البدال وقدموا على خالد بن سعيد وعندها اهتم أبو بكر بالشام وعناه أمره وكان أبو بكر قد رد عمرو بن العاص الى عمله الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاه اياه من صدقات سعد هذيم وعذرة وغيرهم قبل ذهابه الى عمان ووعده أن يعيده الى عمله بعد عوده من عمان فأنجزله أبو بكر عدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما عزم على قصد الشام كتب له انى كنت قد رددتك على العمل الذى ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ووعدك به أخرى انجازا لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وليتك وقد أحببت أن أفرغ لك لما هو خير لك فى الدنيا والآخرة

الا أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك فكتب اليه عمرو انى سهم من سهام الاسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارمه به فأمره وأمر الوليد بن عقبة وكان على بعض صدقات قضاعة أن يجمعا العرب ففعلا وأرسل أبو بكر الى عمرو بعض من اجتمع اليه وأمره بطريق سماه له الى فلسطين وأمر الوليد بالاردن وأمده ببعضهم وأمر يزيد بن أبى سفيان على جيش عظيم هو جمهور من انتدب اليه فيهم سهيل بن عمرو فى أمثاله من أهل مكة وشيعه ماشيا وأوصاه وغيره من الامراء فكان مما قال ليزيد انى قد وليتك لابلوك وأجربك وأخرجك فان أحسنت رددتك الى عملك وزدتك وان أسأت عزلتك فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذى من ظاهرك وان أولى الناس بالله أشدهم توليا له وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا اليه بعمله وقد وليتك عمل خالد فاياك وعبية الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها واذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم اياه واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا واصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لاوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولا تريهم فيروا خللك ويعلموا علمك وأنزلهم فى ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم ولا تجعل سرك علانيتك فيخلط أمرك واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك واسر بالليل فى أصحابك تأتك الاخبار وتنكشف عندك الاستار وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير افراط وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها أيسرهما لقربها من النهار ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفعا ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ولا تجسس عليهم فتفضحهم ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم ولا تجالس العبائين وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقا ولا تجبن فيجبن الناس واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعا لولاة الامر ثم ان أبا بكر استعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع وأمره بحمص وسار أبو عبيدة على باب من البلقاء فقاتله أهله ثم صالحوه فكان أول صلح فى الشام واجتمع للروم جمع بالعربة من أرض فلسطين فوجه اليهم يزيد ابن أبى سفيان أبا أمامة الباهلى فهزمهم فكان أول قتال بالشام بعد سرية أسامة بن زيد ثم أتوا الدائن فهزمهم أبو أمامة أيضا ثم مرج الصفر استشهد فيها ابن خالد بن سعيد وقيل استشهد فيها خالد

أيضا وقيل بل سلم وانهزم على ما ذكره وذلك انه لما سمع توجيه الامراء بالجنود بادر بقتال الروم فاستطرد له باهان فاتبعه خالد ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد فنزل مرج الصفر فاجتمعت عليه مسالح باهان وأخذوا الطرق وخرج باهان فرأى ابن خالد بن سعيد فقتله ومن معه فسمع خالد فانهزم فوصل في هزيمته الى ذي المروة قريب المدينة فأمره أبو بكر بالمقام بها وبقي عكرمة في الناس ردءا للمسلمين يمنع من يطلبهم وكان قد قدم شرحبيل بن حسنة من عند خالد بن الوليد الى أبي بكر بالشام وندب معه الناس واستعمله على عمل الوليد بن عقبة فأتى شرحبيل على خالد بن سعيد ففصل عنه بعض أصحابه واجتمع الى أبي بكر ناس فأرسلهم مع معاوية بن أبي سفيان وأمره باللحاق بأخيه يزيد فلما مر بخالد فصل عنه بباقي أصحابه فأذن أبو بكر لخالد بدخول المدينة فلما وصل الامراء الى الشام نزل أبو عبيدة الجابية ونزل يزيد البلقاء ونزل شرحبيل الاردن وقيل بصرى ونزل عمرو ابن العاص العربة فبلغ الروم ذلك فكتبوا الى هرقل وكان بالقدس فقال أرى أن تصالحوا المسلمين فوالله لان تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب اليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم فتفرقوا عنه وعصوه فجمعهم وسار بهم الى حمص فنزلها وأعد الجنود والعساكر وأراد اشتغال كل طائفة من المسلمين بطائفة من عسكره لكثرة جنده لتضعف كل فرقة من المسلمين عمن بازائه فأرسل تذارق أخاه لابيه وأمه في تسعين ألفا الى عمرو وأرسل جرجة بن توذر الى يزيد بن أبي سفيان وبعث القيقار بن نسطوس في ستين ألفا الى أبي عبيدة ابن الجراح وبعث الدراقص نحو شرحبيل فهابهم المسلمون وكاتبوا عمرا ما الرأي فأجابهم ان الرأي لمثلنا لاجتماع فان مثلنا اذا اجتمعنا لا نغلب من قلة فان تفرقنا لا تقوم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا وكتبوا الى أبي بكر فأجابهم بمثل جواب عمرو وقال ان مثلكم لا يؤتى من قلة وانما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب فاحترسوا منها فاجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل واحد منكم باصحابه فاجتمع المسلمون باليرموك والروم أيضا وعليهم التذارق وعلى المقدم جرجة وعلى المجنبة باهان ولم يكن وصل بعد اليهم والدراقص على الاخرى وعلى الخرب القيقار فنزل الروم وصار الوادي خندقا لهم وانما أرادوا أن يتأنس الروم بالمسلمين لترجع اليهم قلوبهم ونزل المسلمون على طريقهم ليس للروم طريق الا عليهم فقال عمرو أبشروا حصرت الروم وقلما جاء محصور بخير وأقاموا صفرا عليهم وشهري ربيع لا يقدرون منهم على شيء من الوادي والخندق ولا يخرج الروم خرجة الا أديل عليهم المسلمون

ذكر فتح دمشق

قال ولما هزم الله أهل اليرموك استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب الحميري وسار حتى نزل بالصفر فأتاه الخبر أن المنهزمين اجتمعوا بفحل وأتاه الخبر أيضا بان المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فكتب الى عمر في ذلك فأجابه عمر بأمره بان يبدأ بدمشق فانها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بازائهم واذا فتح دمشق صار الى فحل فاذا فتحت عليهم سار هو وخالد الى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمرا بالاردن وفلسطين فأرسل أبو عبيدة الى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبا منها وشق الروم الماء حول فحل فوحلت الارض فنزل عليهم المسلمون فكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق وبعث أبو عبيدة جندا فنزلوا بين حمص ودمشق وأرسل جندا آخر فكنوا بين دمشق وفلسطين وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق وعليها نسطاس فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو على ناحية وكان هرقل قريب حمص فحصرهم المسلمون سبعين ليلة حصارا شديدا وقاتلوهم بالزحف والمجانيق وجاءت خيول هرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التي عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمون وولد للبطريق الذي على أهلها مولود فصنع طعاما فأكل القوم وشربوا وتركوا مواقفهم ولا يعلم بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شئ وكان قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم وأوهاقا فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي وأمثاله وقالوا اذا سمعتم تكبيرا على السور فاركضوا الينا واقصدوا الباب فلما وصل هو وأصحابه الى السور ألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشرف وكان ذلك المكان أحصن موضع بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم انحدر خالد وأصحابه وترك ذلك المكان من يحميه وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون الى الباب والى الحبال وانتهى خالد الى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لا يدرون ما الحال وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل كل من عنده من الروم فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له ادخل وامتنعنا من أهل ذلك الجانب ودخل أهل كل باب يصالح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا قتلا ونهبا وهذا صلحا وتسكينا فاجروا ناحية خالد مجرى الصلح وكان صلحهم على المقاسمة وقسموا معهم للجنود التي عند فحل وعند حمص وغيرهم ممن هو ردء للمسلمين وأرسل أبو عبيدة الى عمر بالفتح فوصل كتاب عمر الى أبي عبيدة يأمره بارسال جند العراق نحو العراق الى سعد بن أبي وقاص فأرسلهم وأمر عليهم هاشم بن عتبة المرقال

وكانوا قد قتل منهم فأرسل أبو عبيدة عوض من قتل وكان ممن أرسل الاشتر وغيره وسار أبو عبيدة الى فحل (من تاريخ الكامل لابن الاسير)

فصل فى بيان الطريقة التى سلكها الرومانيون لادخال جميع الامم تحت طاعتهم

كانت مشورة السنت برومة فى أثناء تلك السعود التى يحصل فيها عادة الاهمال والفتور لم تزل على الحزم والتبصر فى مدة ما كانت الجيوش الرومانية ترعب جميع أهل الارض كانت تلك المشورة تبقى من انخفض على انخفاضه ولا تتركه يرتفع

وبعد أن كانت مشورة استحالت الى محكمة يفصل فيها جميع دعاوى الامم وخصوماتهم فكانت فى اخر كل حرب هى التى تحكم بالثواب أو العقاب على مستحقه وتأخذ جزأ من أراضى الامة المغلوبة وتعطيه لمعاهديها وترتب على ذلك شيآن أحدهما أنها ربطت برومة ملوكا تأمن شرهم قليلا وترجو خيرهم كثيرا وثانيهما أنها أضعفت آخرين لا ترجو منهم خيرا وتخشى منهم شرا

وكانت تستعين بأمم تعاهدهم على محاربة العدو وكانت تبتدئ بما يضعف شوكة الملوك الذين يسعون فى تخريب الممالك فقد أغروا الايتوليين على فيليبش فهزموه ثم دمروا هذه الامة لكونها انضمت الى انطيوكوس واستعانوا باهل جزيرة رودس على هذا الملك فهزموه وبعد أن كافأوهم على ذلك مكافآت بينة عاملوهم بما أورثهم الذل والهوان الى الابد متعللين بانهم طلبوا الصلح من برشاوش ملك مقدونيا

وكانوا اذا تكاثرت عليهم جموع الاعداء فى آن واحد يهادنون الاضعف فيفرح بنيل هذا المرام ويرى تأخير دماره من أجل النعم عليه وكان من دأب تلك المشورة أنها حين اشتغال الرومانيين بحرب جسيم تغضى عما يصل اليها من أنواع الاساءة وتلازم الصمت منتظرة أوان العقوبة واذا أرسلت اليها أمة من الامم جماعة المذنبين امتنعت من عقابهم وآثرت على عقوبة هؤلاء المذنبين كونها تعد الامة التى منها هؤلاء الجماعة مذنبة حتى يأتى وقت يعود فيه الانتقام من تلك الامة بالمنفعة عليهم

ولما كانوا يضمرون لاعدائهم من الشر ما لا يطاق كان يندر التحزب عليهم وذلك لان من كان بعيدا عن الخطر لا يجب القرب منه

ولهذا كان لا يبتدؤهم أحد بالحرب الا نادرا وأما هم فكانوا دائما يقدمون عليه الا فى الوقت اللائق وعلى الوجه الملايم ومع من يليق بهم التصدى لحربه ومن الامم العديدة التى أغاروا عليها

قل من لا يتحمل منهم أنواع الاساءة لو أرادوا ابقاءه على الصلح وكانت عادة ملوك الرومانيين انهم يسلكون فى مخاطباتهم مع الامم الاجنبية مسلك السيادة عليهم فاذا كان سفراؤهم الى الامم التى لم تكن الى ذلك الوقت دخلت تحت طاعتهم ولم تذق طعم بطشهم وصولتهم مجزوما من قبل باساءة معاملتهم فكان هذا وسيلة محققة للحرب معهم (ومن هذا القبيل حربهم مع الدلماشين)

وكانوا أيضا اذا عقدوا صلحا لا يعقدونه الا وهم مضمرون الخيانة والغدر فانهم لما كانوا مصممين على تعميم الاغارة والتغلب لم يكن عقدهم للصلح فى الحقيقة الا مجرد متاركات ومهادنات وكانوا دائما يشترطون فى عقودهم الصلحية شروطا تفضى بالدولة التى تقبلها الى الخراب والدمار فكانوا يشترطون اخراج المحافظين من الحصون والقلاع أو تقليل عدد العساكر البرية أو أخذ خيولهم أو فيلتهم واذا كان لهذه الامة المصالحة قوة بحرية جبروها على احراق سفنها بل ربما ألزموها بالسكنى فى داخل الاراضى للبعد عن السواحل

وكانوا بعد تدمير جيوش الملك الذى حاربوه يسعون أيضا فى نفاد خزائنه بضربهم عليه مغارم خارجة عن حد العادة أو خراجا مقررا متعللين بان ذلك الزام له بدفع ما أنفقوه فى مصاريف الحرب فكان هذا ضربا من الظلم يجبر ذلك الملك على ظلم رعيته واضرارهم الموجب لكراهتهم له وحقدهم عليه وكانوا اذا منحوا الصلح لملك أخذوا أحد اخوته أو أولاده رهينة وكفالة على دوام الصلح فكان ذلك وسيلة لهم على اثارة الفتنة بمملكته متى أحبوا وذلك ان من أخذوه رهينة ان كان ولى عهد المملكة أرهبوا الملك به وأخافوه وان لم يكن ولى عهد بل كان من أقارب الملك غير الادنين جعلوه آلة فى تحريض الاهالى على العصيان والخروج عن الطاعة

وكان من خرج من الامراء والاهالى عن طاعة ملكه عاهدوه وأتحفوه بلقب معاهد الامة الرومانية فبهذا يجعلون له حرمة لا تهتك ويترتب على ذلك ان لا يأمن أحد من الملوك أيا ما كان فى العظم وعلو الدرجة على بقاء رعيته تحت طاعته بل ولا على عائلته وخاصته

ولقب معاهد الامة الرومانية مع كونه فى الواقع نوعا من الاستعباد كان مرغوبا للناس رغبة تامة (فمن ذلك ما ذكره المؤرخ بوليبه من أن بعض الملوك قرب للآلهة قربانا شكرا لهم على اتحاف الرومانيين له بهذا اللقب) وذلك ان حليفهم كان يعلم ان لا أحد يتعدى عليه غيرهم وكان يقدم بنفسه مقتضيات توجب طمعه فى تخفيف الاساءة عنه حيث لم يكن هنالك خدمة للرومانيين لا يبادر الراغبون فى محالفتهم سوقة وملوكا بالقيام بها ولا دناءة الا ارتكبوها رغبة فى هذا اللقب

وكان معاهد الرومانيين على ضروب مختلفة فمنهم من كان منضما اليهم بمزايا وخصايص مقتسما معهم عظمهم وعلو شأنهم كالاطينيين والهرنيقيين ومنهم من كانت معاهدته باللحوق بهم

كالقبائل التابعة لهم ومنهم من كان بمجرد الاحسان والانعام عليه كالملك مسينيسه وأومينه وأطالوس حيث كانوا سببا فى تأسيس ممالكهم واتساعها ومنهم من عاهدهم بالطوع والاختيار وهؤلاء كان يسترعيهم الرومانيون بتداول المحالفات عليهم كملوك مصر وبتنية وقبادوقه وأغلب مدن اليونان ومنهم من عاهدوهم بطريق القهر والغلبة وأجروا عليه قانون الاسترعاء كالملك فيليبش وانطيوكوس وذلك انهم كانوا لا يمحون الصلح عدوهم بدون معاهدته بمعنى ثم انهم كانوا لا يدخلون أمة من الامم تحت طاعتهم الا ويجعلونهم واسطة فى اضعاف أمة أخرى

وكانوا اذا ابقوا بعض المدائن على الحرية بادروا بايقاع الاختلاف بين أهلها وجعلهم حزبين أحدهما يقوم بمعاماة قوانين بلده وحريتها والآخر بتحزب للرومانيين ويحامى عن اطلاق تصرفهم وحيث كان هذا الحزب هو الاقوى دائما لم يكن فى هذه المدينة من الحرية الا مجرد الاسم

وكانوا فى بعض الاحيان يتغلبون على بعض ولايات متعللين بان لهم فيها حق الوراثة فمن ذلك انهم دخلوا بلاد آسيا وبتنية وليبيا بموجب وصية الملك اطالوس وبتقومي ده بن فيلوباتور وايبون ووصلت اليهم حكومة مصر بوصية الملك القيروان

ولاجل جعل كبار الملوك دائما ضعافا كانوا يمنعونهم من معاهدة معاهديهم أى الرومانيين (كما وقع لانطيوكوس) ولما كانوا لا يأبون معاهدة من جاورمن الامم ملكا قوى الشوكة كان ذلك الشرط المقرر فى معاهدتهم الصلحية وهو منع كبار الملوك من معاهدة معاهديهم لا يبقى لهذا الملك معاهدين

وكانوا أيضا اذا ظهروا على ملك من عظماء الملوك يشترطون عليه أنه لا يسوغ له أن يقدم على الحرب مع معاهديهم وهم فى الغالب مجاورونه اذا وقع منهم موجب ذلك بل يفوض للرومانيين فصل هذه الدعوى فيكونون حكما بينه وبين أخصامه فكان ذلك يفضى به الى التجرد عن القوة العسكرية

ولاجل أن تكون هذه القوة مقصورة عليهم كانوا يجردون عنها نفس معاهديهم فكانوا متى علموا أنه وقع لهؤلاء المعاهدين أدنى مشاجرة بعثوا اليهم رسلا يجبرونهم على الصلح ويتضح لك ذلك بالوقوف على ما وقع منهم فى كيفية انهائهم لحرب اطالوس ملك برغامه مع بروزياس ملك بتنيه

وكان اذا فتح بعض الملوك فتوحا نفدت به كما هو الغالب قونه جاء اليه على حين غفلة سفير من الرومانيين ونزعه من يده وكثيرا ما وقع منهم ذلك ومنه طردهم لانطيوكوس من مصر بمجرد الكلام كما هو مقرر فى التواريخ ولما كانوا يعرفون حق المعرفة استعداد أمم أوروبا وصلاحيتهم للحرب جعلوا من الاصول أنه لا يسوغ لاى ملك من ملوك آسيا أن يدخل بلاد أوروبا ولا أن يسترعى أمة من أممها أيا ما كانت (وكان أول صدور هذا المنع لانطيوكوس قبل الحرب

حيث منعوه أن ينتقل الى أوروبا ثم صار منعا عاما لجميع الملوك) وكان أقوى باعث لهم على حرب متريدات أحد ملوك آسيا هو مخالفته لمانهم واعنه واسترعاؤه لبعض المتبربرين بتلك البلاد

وكانوا متى رأوا حربا بين أمتين من الامم ولو لم يكن لهم أدنى معاهدة أو مشاجرة مع احداهما بادروا بالدخول معهما في ميدان الحرب وأخذوا بناصر الاضعف منهما كطائفة الشوالرية الفرنساوية الرحالة النزالة سابقا وقد ذكر المؤرخ ديونيس القرناصي أن من عادة الرومانيين قديما اغاثة من استغاث بهم أيا ما كان

ولم تكن هذه العوائد الرومانية مجرد حوادث جزئية حاصلة بالصدفة والاتفاق بل كانت بموجب أصول مستمرة ويظهر لك ذلك بمجرد التأمل فان ما سلكوا عليه من الاصول في اضرار الممالك العظيمة هو في الحقيقة عين الاصول التي جروا عليها في مبدأ أمرهم واستعملوها في اضرار ما جاورهم من المدن الصغيرة

فقد استعانوا بالملك أومينة ومسينيسة على استرعاء فيليبش وأنطيوكوس كما استعانوا باللاطينيين والهرنيقيين على الاستيلاء على الواسيين والطوسكانيين وجبروا القرطاجيين وملوك آسيا على التسليم في سفنهم الحربية كما جبروا الملك أنطيوم على تسليم مراكبه التجارية لهم وقطعوا العلائق السياسية والروابط المدنية التي كانت بين الاجزاء الاربعة من مقدونيا كما قطعوا علائق الارتباط بين المدن اللاطينية الصغيرة وأبطلوا اتحادها وائتلافها كذا ذكره تيليوه في الكتاب السابع من تاريخه

وكان أعظم الاصول عندهم قرارا ونباتا هو التفريق بين الامم وابطال اتحاد المدن فان جمهورية الاخائيين ببلاد مورة كانت متجمعة من عدة مدائن حرة فأمرت مشورة السنت بان كل مدينة من الآن فصاعدا تحكم نفسها بقوانينها الخاصة بها وأن لا تدخل تحت حكومة مشتركة

وكانت جمهورية البيوسيانيين أيضا بهذه المثابة لكن لما كان بعضهم في حرب الرومانيين مع برشاوش مائلا الى حزب هذا الملك وبعضهم مائلا الى الحزب الروماني قابل الرومانيون الفريق الذي انضم اليهم بالترحيب والاكرام على أن ينقض ما بينه وبين الفريق الآخر من الاتحاد والالتئام هذا ولو كان بعض ملوك عصرنا (هو لويز الرابع عشر ملك فرنسا) جرى على تلك الاصول الرومانية بان أعان بعض مجاوريه من الملوك (هو يا كبر الثالث ملك الانكليز) حين خلع عن سرير ملكه وأمده بامدادات عظيمة ليثبت على ملكه وحصر حكومته في الجزيرة التي بقيت على طاعته لكان تمزيق هذه المملكة التي كان في وسعها تعطيل أغراضه ومصالحه يعود عليه بالمنافع الجمة ولترتب على مصائب معاهديه من الفوائد العظيمة ما يجل عن الحصر (ويكون ذلك مصداق قول القائل مصائب قوم عند قوم فوائد)

وكان اذا حصلت مشاجرة فى دولة من الدول بادر الرومانيون بفصل الدعوى بين الخصمين فكانوا يتيقنون بذلك أنه لا يعاديهم الا الفريق المحكوم عليه بالعقاب فاذا كانت المشاجرة فى شأن الحكومة بين أميرين كلاهما من نخذا المملكة كانوا فى بعض الاحيان يقلدونهما جميعا تلك الحكومة (كما وقع ذلك لملك اريا راطس وهو لوفرنة فى مملكة فبادوقة) فاذا كان أحدهما قاصرا لم يبلغ رشده ولوه الحكومة وجعلوه تحت كفالتهم بوصف كونهم أرباب الزعامة لاهل الارض وذلك أنهم بلغوا مبلغ كونهم جعلوا جميع الامم سوقة وملوكا رعية لهم من غير أن يعلم أحد على التحقيق بأى وصف من أوصاف الاستحقاق وصلوا الى هذه الدرجة فكان من الموقور فى الاذهان أن مجرد السماع بهم يكفى فى انقياد الامم اليهم

وكانوا لا يقدمون أبدا على محاربة دولة بعيدة عنهم الا اذا عثروا على معاهدة أمة قريبة من هذه الدولة التى يريدون محاربتها ليضموها الى العساكر المبعوثة من طرفهم لهذا الغرض وذلك أنهم لما كانوا لا يرسلون الى القتال الا جيشا قليلا من العساكر كانوا يحافظون على وضع جيش آخر فى الاقليم الاقرب الى بلاد العدو وابقاء جيش ثالث بمدينة رومة يكون مستعدا للتنفير فكانوا بهذه الطريقة لا يعرضون الى القتال من عساكرهم الا القليل بخلاف العدو فكان يعرض جميع عساكره الى الخطر (وكان ذلك من العوايد الجارية عندهم فى الاقدام على الحروب كما هو مقرر فى التواريخ ويعرف ذلك بالوقوف على حربهم مع المقدونيين)

ولما كانت ألفاظهم بالتدقيق فيها تقبل التصرف والتأويل فى معانيها كانوا يحتجون بذلك فى مخالفة ظاهرها فقد خربوا مدينة قرطاجه قائلين انا لم نعد الا بحفظ المدينة الداخلية دون المصر بتمامها وكذلك غرورهم للايتوليين حين قالوا فى المشارطة انا تركنا أمر نا الامانة أعدائنا فغدروا بهم وأولوا ذلك قائلين ان معنى ترك الامر للعدو يشمل خسران جميع الاشياء والاشخاص والاراضى والمدن والهياكل بل والمقابر

وربما كانوا يؤولون شروط المعاهدة ويصرفونها عن معناها الاصلى بتأويلات اختيارية من عند أنفسهم فانهم لما أرادوا اضعاف أهل جزيرة رودس قالوا انا لم نعطهم مملكة ليقيا على سبيل الهبة وانما ذلك من قبيل الوديعة عند المحب والمعاهد

وكان اذا عقد بعض أمراء جيوشهم الصلح مع العدو لانقاذ جيشه الذى أشرف على الهلاك كانت مشورة السنت التى لا تضع على هذا الصلح صحتها تغتنم فرصته وتجعله وسيلة لاستمرار الحرب كما وقع ليوغورطة أحد ملوك العرب فانه حجز جيشا من الجيوش الرومانية ثم خلى سبيله بعقد معاهدة بينهم وبينه فنقضوها وعادوا الى قتاله ووجهوا اليه نفس العساكر الذين خلى سبيلهم

وكذلك النومنطيون فانهم لما أوقعوا عشرين ألفا من الرومانيين فى ورطة أشرفوا بها على الموت جوعا وحملتهم على طلب الصلح وتجوابه من تلك الشدة فسخ الرومانيون هذا الصلح بمدينة رومة وخانوا العهود العامة وهتكوا حرمة حقوق الدول حيث وجهوا لقتالهم القنصل الذى عقد ذلك الصلح ووضع امضاءه عليه (وقد سلكوا هذا المسلك أيضا مع عدة من الامم)

وربما كانوا يعقدون الصلح مع بعض الملوك على شروط صحيحة مقبولة حتى اذا وفى بها زادوا عليه شروطا أخرى صعبة يتعذر عليه الوفاء بها فيجبر بذلك على تجديد الحرب معهم فمن ذلك ما فعلوه مع الملك يوغورطة فانهم بعد أن شرطوا عليه أن يسلم لهم فيلته وخيوله وخزائنه والملتجئين اليه وسلم لهم ذلك طلبوا منه أن يسلم نفسه اليهم وحيث انه لم يبق للملك من المصائب ما هو فوق ذلك لم يبق ثم شرط للصلح

وقصارى أمرهم انهم صاروا يحكمون على الملوك بالعقوبات على صغائرهم وكبائرهم التى جنوها على أنفسهم ولا حق فيها لمخلوق وانهم صاروا يقبلون الشكاوى من كل من كان له مشاجرة مع الملك فيعيش ويعيشون وكلاء من طرفهم لاجل منع الظلم وابقاء الامن والاطمئنان بين رعاياه وأحضروا الملك برشاوش عندهم واتهموه بانه قتل بعض الناس وتشاجر مع أهل المدن المحالفة لهم ولما كان نفار الجنرالات عندهم على حسب ما يجلبونه اليهم من الذهب والفضة التى كانوا يغنمونها عند النصرة كان هؤلاء الجنرالات اذا ظهروا على أمة من الامم لا يتركون لها شيأ من أموالها فبذلك كانت مدينة رومة تزداد دائما فى الغنى والثروة بحيث كان فى وسعها عقب كل حرب أن تشرع فى أخرى وكانت الامم المتحابة أو المتحالفة مع الرومانيين تبذل جميع أموالها فى الهدايا العظيمة التى كانت تهاديهم بها امالبقاء جاهها وحظوتها عندهم أولاجل ازدياد ذلك مع أنها لو حاربتهم لكفاها فى غلبتهم والظهور عليهم نصف ما بذلته اليهم (بخلاف ما كانت تهدبه مشورة السنت الى ملوك هؤلاء الامم فانه كان واهيا تافها وذلك ككرسى أو قضيب من العاج أو خلعة من خلع الولاية)

ولما صاروا سادات الدنيا جعلوا لانفسهم الحق فى جميع أموالها فكان سلبهم للاموال عند الفتح والانتصار أقل فى الظلم من سلبهم لها بالاحكام ووضع القوانين ألا ترى أنهم لما علموا ثروة بطليموس ملك قبرص وكثرة خزائنه وضعوا قانونا اجابة لما عرضه عليهم أحد قضاتهم من محامى الامة ورثوا به هذا الملك وهو على قيد الحياة وضبطوا ملكه مع كونه حليفهم

فعما قليل طمع الآحاد استوعب ما أبقاه طمع الدولة وأنفده فكان القضاة والحكام يبيعون للملوك الحيف والجور على الناس فمن ذلك أن اثنين متنافسين بذلا جميع أموالهما الشراء عناية الملك الغير محققة وأن يكون لهما ظهيرا على خصم آخر بقى من أمواله شئ لم يبذله فى شراء تلك العناية

لانه لم يكن عندهم من العدل ما يكون غالبا عند أرباب السلب والنهب مما يحملهم عادة على الرفق والتقوى فى صناعتهم وارتكاب ذنوبهم وبالجملة فكانت الحقوق على اختلافها شرعية أو غصبية لا تثبت الا بالرشوة فلذا كان الامراء يجردون الهياكل عن زينتها ويأخذون أموال أغنياء الاهالى لاجل تحصيل تلك الحقوق ويرتكبون ما يقدرون عليه من الذنوب والجنايات لاعطاء جميع أموال العالم للرومانيين

ومع أن ماذكر كان يزيد بأس الرومانيين لكن لم يكن ثم شئ أنفع لرومة فى اظهار بأسها من انطباع هيبتها فى قلوب أهل الارض وذلك انها بدأت باسكات الملوك والزامهم الصمت حتى صيرتهم كالبله ولم يكن بهم ادرجة قوتهم وصولتهم بل كانت تقع فى أعراضهم فكان الملك منهم يخشى خطر الحرب معها واذا خاطر فقد عرض نفسه للاسر أو القتل أو عار الهزيمة فكان هؤلاء الملوك أولو العز والسودد ورغد العيش لا يتجاسرون أن ينهضوا بابصارهم الى الامة الرومانية بخلاف منها ووجلا من بأسها فادى بهم ذلك الى فتور الهمة واضمحلال القوة وصاروا ينتظرون بصبرهم وذلهم وقتا ينقضى فيه ما لحقهم من المذلة والتعب (فكانوا يبذلون غاية جهدهم فى اخفاء شوكتهم وثروتهم عن الرومانيين كما ذكره المؤرخ ديون)

هذا والتمس ممن اطلع على كتابى هذا أن يتأمل سلوك الرومانيين فى فتوحاتهم فانهم بعد أن هزموا أنطيوكوس صاروا ولاة أمر بلاد أفريقة وآسيا واليونان مع أنهم فى الحقيقة لم يأخذوا لانفسهم مدينة من مدنهم افكانهم ما كانوا يفتحون الممالك الا ليعطوها غيرهم ومع ذلك لم يزالوا ولاة متمكنين مما فتحوه بحيث كانوا اذا تصدوا لمحاربة ملك من الملوك حملوه أعباء الحرب مع أهل الدنيا حتى كأنهم أثقلوا ظهره بجميع أثقال الارض

وذلك أنه لم يكن حان لهم وقت الاستيلاء بانفسهم على البلاد التى فتحوها فانهم لو حفظوا المدن التى أخذوها من فيليبش لتعلقت بها آمال اليونان ولتوجهت اليها أطماعهم ولو أخذوا بعد الحرب البونيقى الثانى مع القرطاجيين أو بعد حربهم مع أنطيوكوس أراضى من أفريقة أو آسيا لتعذر عليهم أن يحفظوا مثل هذه الفتوحات التى كانت يومئذ قليلة الثبات (فكانوا لا يعرضون فيها قبائلهم للخطر بل كانوا يؤثرون على ذلك ابقاع الغيرة المستمرة بين القرطاجيين وأهالى مسينيسه والاستعانة بكل منهما على قمع المقدونيين واليونان وادخالهم تحت الطاعة)

وانما كانوا ينتظرون وقتا تكون فيه جميع الامم متعودة على الطاعة والانقياد مع كونهم أحرارا أو حلفاء قبل أن يحكموهم بوصف كونهم رعايا ويدخلوهم بالتدريج تحت حكم الجمهورية الرومانية من غير أن يشعروا بذلك

ويدلك عليه مشارطتهم مع اللاطينيين بعد نصرتهم فى واقعة بحيرة ريجيلة فانها كانت من الاصول التى بنيت عليها شوكتهم وليس فيها كلمة تشعر بان لهم السلطة على اللاطينيين

ومثل هذه الطريقة بطيئة فى الفتح فكانوا اذا ظهروا على أمة لا يحكمون عليها من أول وهلة بل يقتصرون على إضعاف شوكتها باشتراطهم عليها شروطا تطفئ بهجتها وتضعف صولتها على وجه غير محسوس فاذا رأوا منها أنها آخذة فى الارتفاع خفضوها وبالغوا فى اذلالها فتصير بذلك من جملة رعاياهم من غير أن تشعر بالوقت الذى استرعوها فيه

فلم تكن مدينة رومة فى الحقيقة مونرخية ولا جمهورية وانما كانت بمنزلة رأس لجسم أعضاؤه جميع أمم الدنيا

هذا ولو نسج الاسبانيون على هذا المنوال بعد فتحهم لبلاد مكسيكه وبلاد برو وبامريقه لما اضطروا الى تدمير ما فتحوه من الممالك فى حفظ جميع بلادهم دفعة واحده

ومن جنون الفاتحين كونهم يريدون أن جميع الامم التى استولوا عليها تتمسك بقوانينهم وتتخلق بأخلاقهم وعوائدهم لان ذلك لا ثمرة فيه لان الانسان قابل للطاعة والانقياد على اختلاف أنواع الحكومة وليس اختلافها ما نعا من ذلك

وهذا بخلاف ما كانت عليه مدينة رومه فانها لما كانت لا تضع قوانين عامة لجميع الامم بل كان لكل قانون يخصه كان لا يوجد بين هؤلاء الامم ما يوجب الخطر على الرومانيين من العلاقات والروابط التى يترتب عليها الفشل فى الحكومة فلم يكن يجمع تلك الامم الا مجرد الطاعة والانقياد للامة الرومانية وكان يطلق عليها اسم الرومانيين وان لم يكونوا من بلدة واحدة

فان قيل ان الممالك المؤسسة حكومتها على القوانين الالتزامية لم تثبت قط على حالة واحدة بل كانت دائما مضطربة لا شوكة لها ولا صولة فالجواب أن منهج الرومانيين فى حكومة الممالك كان مباينا لمنهج من عداهم بالكلية وقصارى الامر أن منهجهم منشؤه القوة والشجاعة بخلاف من عداهم فنشأ منهجهم الضعف وعدم الحزم وكان للرومانيين تشديد عجيب فى الاسترعاء والاستعباد كما أن الآخرين كان لهم افراط شديد فى الاستبداد والاستقلال فكانت حكومة البلاد التى فتحها الامم الجرمانية بيد أتباعهم ولم يكن للملك فيها الا مجرد الحق بخلاف الرومانيين فكان الامر بالعكس

(من كتاب برهان البيان وبيان البرهان)

فصل فى فتوحات الامبراطور يوستيانوس وحكمه

لما كان الداخل فى الاقاليم الرومانية من أجناس الاقوام المتنوعة والامم المختلفة كثير بدون أن يكون ثم ما تمتاز به أمة منهم عن الاخرى أفضى بهم ذلك الى أن زاحم بعضهم بعضا وكان الغرض

البوليتيقى اذ ذاك من جانب الرومانيين تحريض هؤلاء الاغراب على الفشل وايقاع ذات البين فيما بينهم وكان الحصول على ذلك أقرب شئ لما كان قائما بهؤلاء الاقوام من الفظاظة والغلظ والطمع فأدى ذلك الى بوارهم بابادة بعضهم بعضا قبل تمكنهم من الاستيطان وصيرورتهم ملة وان استوطن منهم البعض فهو القليل النادر وهذا هو السبب فى كون الامبراطورية المشرقية بقيت بعد تبدد المغربية مدة من الزمان

وأيضا من جملة أسباب انقراض الامبراطورية المغربية قبل المشرقية أن الاقطار الشمالية لما نفدت بجلاء الاقوام عنها وقل أهلها صار لا يقدم على البلاد الرومانية من يقوم منه الجند كما كان ذلك فى مبدأ الامر وذلك لانه عقب اغارة الغوطة والهونة لاسيما بعد موت ملكهم اتيلا كان حرب الرومانيين لهاتين الامتين ولمن جاء بعدهم بدون قوة حاسمة ولا شوكة قاصمة كأنها جند واحد وجيش طارد ثم تمزقت وتشتت شملها وتقسمت فرقا وأحزابا وملامتباينة تأبى ائتلافا بينها واستصحابا فبهذا داخلهم الضعف والاضمحلال وفقد البأس وحصول الاختلال حيث تفرقوا شغر بغر فى ولاياتهم التى افتتحوها وبلادهم التى للاستيطان استنجحوها فمن ثم صاروا هدفا للاغارات وغرضا للاستقبال الغارات بعد أن كانوا هم المغيرين ومغلوبين بعد أن كانوا غالبين فانتهز يومئذ الامبراطور يوستيانوس الفرصة فى أثناء ذلك وتصدى للتغلب على بلاد أفريقة وايطاليا وأعادها للطاعة وقد فعل الفرنساوية نظير ذلك مع الوزيغوطة والبرغونية واللومبارديه والعرب حيث انتهزوا فرصة اختلالهم فحاربوهم وسلبوا البلاد من أيديهم وأعادوها لملكهم ولما كان هؤلاء الامم فى قبضة الرومان ودخل دين النصرانية عند الرومان وسرى اليهم منهم التنصر كان مذهب اريوس هو المتمسك به فى الحكومة الرومانية فأرسل الملك والنس من طرفه دعاة اريوسية الى هؤلاء الامم ليدعوهم الى التنصر ولم يكن أرسل اليهم غيرهم قبل ذلك ففى أثناء المدة بين تنصرهم واستيطانهم ألغى هذا المذهب عند الرومانيين وانتسخ وكاد أن لا يكون له أثر وعند طبقة وخروجا واعتدالا ومع ذلك فلم تزل الامم المتبربرة متمسكة به ومجرية العمل على مقتضاه فبهذه الطريقة نفرت منهم نفوس الناس فلم يمكنهم أن يستميلوا قلوب أحد اليهم من الاهالى حيث وجدوا جميع الاهالى على الدين الاريودكسى وهو الدين الاصلى الذى لا هرطقة فيه فلم ينجحوا فى الاغارات ولا فى استيعاء المخلوقات وأيضا لم يكن عندهم معرفة بفن المهاجمة على المدن الحصينة ولا المعاقل المنيعة بل ولا اقتدار على المدافعة ولا همة على الممانعة تركوا أسوار المدن الحصينة التى تحت أيديهم تتهدم ولم يحافظوا على استحكام بناء محكم فقد نص بروقوس فى تاريخه انه لما ذهب أمير الجيوش الرومانى المسمى بليزيرس الى بلاد ايطاليا وجد أسوارها على هذا الحال

وكذلك أسوار مدن أفريقيه خربها الملك جنسريق كما هدم وتيزا فيما بعد أسوار مدن مملكة اسبانيا قاصدا بذلك اضعاف أهلها وتمكن استيلائه عليهم

ولما استوطن أغلب أمم الجهة الشمالية وهم الوندال فى الولايات الجنوبية من الامبراطورية كان مبدأ أمرهم أن ورثوا عن أهلها الرخاوة والجبن فعما قريب صاروا لا يقدرون على تحمل مشاق الحرب وحمل السلاح كيف لا وقد فترت هممهم وخمدت شوكتهم يومئذ بانهماكهم على اللذات وطوع أمر الشهوات التى صارت عندهم اذذالك من الضروريات لملازمتهم للرفاهة فى الاطعمة والمآكل واتباع الزخرفة فى الملابس الفاخرة والتزين بزى النساء والمداومة على التنعم فى الحمامات وسماع ألحان الآلات والتنزه فى المتنزهات والبساتين والتفرج فى الملاعب

قال المؤرخ ملكوس وأمن يومئذ الرومانيون من تعكير هؤلاء الامم عليهم وتضجرهم منهم حيث امتنعوا عن امداد الجنود العديدة الذين كانوا دائما فى زمن ملكهم جنسريق مستعدين لملتقى العدو وتداركه وبهم كان يعجب جميع العالم من سهولة فتوحاته وسرعة نجاح مشروعاته

وكان الفرق الكائن يومئذ بين فرسان الرومان وفرسان الغوطة والوندال هو أن الرومانيين كانوا ذوى مهارة جيدة فى الرمى بالنشاب والسهام لكثرة تمرنهم عليه بخلاف الوندال ومن معهم فكانوا لا يستعملون فى حروبهم الا السيف والرمح ولذلك كان يشق عليهم محاربة العدو وهم على البعد منه وكان ذلك الفرق سببا باعثا على بعض ما أعان الجنرال بليزير س

وكان يحصل من الهونة مساعدة جيدة للرومان فى بعض فتوحاتهم عند الشدائد لاسيما فى عهد الامبراطور يوستيانوس كيف لا وقد تناسل منهم أمة البرث الذين ضاهوهم فى فن الحرب ودخلوا فى خدمة الرومان أعوانا لهم فى الحروب من وقت هزيمة قائد جيوشهم اتيلا وانحطاط شوكتهم ووقوع الفشل والشقاق فيما بين أغلب أولاده من بعده وكانوا يدخلون فى خدمة الرومانيين مساعدين لهم وكانوا يكونون عساكرهم الخيالة

وكانت تمتاز كل أمة من هؤلاء الامم الخشنية عما عداها بنوع من الحرب تختص به وتنوع أسلحتها المختلفة باختلاف أجناسها فكانت أسلحة الغوطة والوندال منحصرة فى السيف وكانوا لا يطاقون فى النزال متى كان السيف فى أيديهم وأما الهونة فكانوا أرباب نشاط عجيب فى الرمى بالنشاب وكانت الصوية أعظم من غيرها فى البسالة وأما الالانيون فكانوا يحبون حمل كثير من الاسلحة وأما الهيربايون فكانوا خفافا فى الحرب فكان الرومانيون يختارون من تلك الامم من وافق مقصودهم وغرضهم وبهذه الطريقة كانوا يحاربون كل أمة على حدتها مستعينين عليها بكثرة الامم وبمزاياها التى أسلفنا ذكرها

ومما يستوجب العجب أن أعظم الامم انتجاعا وقبائل فى خارج البلاد هم أضعفهم قوة واقتدارا وانه من أكبر الخطأ أن يستدل على قوتهم بكثرة فتوحاتهم فان الامم المتبربرين بل أفواج القبائل المتولدين منهم كانوا على طول هذه المدة المديدة من مستمر غاراتهم اما هازمين واما مهزومين كل على حسب الاطوار والوقائع وأنه بينما كانت أمة من ذوات الشوكة عظيمة فى تردد من عمل الحرب أو عازمة عليه كانت طائفة من الطفوش الرحالة النزالة اذا وجدوا بلدة خالصا لهم مجازها دخلوها فعشوا فيها الفساد وأنه أمكن لامة الغوطة الذين طالما ولوا الفرار أمام كثير من الامم لعدم لياقة أسلحتهم أنهم تغلبوا فيما بعد على بلاد ايطاليا والغولة واسبانيا ووطنوها وهاجر أمة الوندال من بلاد آسيا لضعف قوتهم فعبروا الى أفريقة وأسسوا لهم فيها مملكة عظيمة

ولم يتيسر ليوسنتيانوس أن يجهز فى واقعة حرب هؤلاء الوندالة ببلاد أفريقة الا خمسين سفينة فقط حتى انه لما أرسى بهم القائد بيليزير على البر لم يجد باقيا معه من عدد العساكر سوى خمسة آلاف رجل لاغير فما أعظم جراءته كان فى هذا المشروع مع أن القيصر ليون كان قد أرسل عليهم قبل ذلك عمارة بحرية اشتملت على جميع سفن بلاد المشرق الرومية وكان فيها من العدة مائة ألف محارب وما قدر مع ذلك على أن يفتح بلاد أفريقة أبدا بل أسقط فى يديه أن قد أضاع المملكة هدرا

وهيهات أن تقبل أمثال تلك العمارات البحرية الجسيمة ولا تلك الجيوش البرية العظيمة فانها حيث كانت تذهب بكل عمارية الدولة وذخرتها كانوا اذا بعدت عليهم الشقة أو أصابهم بعض المصيبة لا يجدون من يمد لهم يد الاعانة ولا ما يجبر بعد ذلك خللهم واذا فقد بعض الشئ فلا معول على ما بقى منه فان السفن الحربية وسفن الحمولة والخيالة والمشاة والذخائر وجميع المهمات الحربية كالشئ الواحد بحيث لو فقد منها البعض لاخل بالهيئة الاجتماعية الكلية ويبطل بذلك عملها وان تراخى الشروع فى الحرب لوقت فرصة للعدو دائما فى أن يكون على أهبة من القوة والاقتدار على ملتقى عدوه ومع أنه كان من النادر دائما أن يبتدئوا غزوة فى فصل معتدل كانت تغشاهم أيام الرواعد والمطر لانتظارهم كثيرا من اللوازم لم يتيسر تجهيزها الا بعد أشهر من تمام ميعادها فاستولى بيليزير على أفريقة والذى أعانه كثيرا على ذلك هو أنه قد تزود بجانب عظيم جدا من الذخائر من جزيرة صقلية بناء على مشارطة حصلت بينه وبين أمالازونطة ملكة الغوطة حتى انه لما ارسل هذا القائد من بعد ذلك للهجوم على بلاد ايطاليا وتبين له أن أمة الغوطة يستمدون مؤنتهم من جزيرة صقلية المذكورة كان أول مشروعه أنه تغلب عليها فأعوز هؤلاء الغوطة أعداءه وأجاعهم وصار هو فى سعة الرخاء من كل شئ أراده

وتغلب بيليزير على كل من قرطاجة ورومة وراوينة وبعث بملوك القوطة والوندال في حبائل الاسر الى مدينة القسطنطينية فشهرت فيها اذذاك مواكب النصر وألوية الفخر بعد ان كان قد تنوسى عهدها وأفل طالع مجدها زمنا طويلا باضمحلال الدولة الرومية وذهاب بهجتها

ويمكن انتساب أقوى أسباب نجاح هذا الرجل العظيم وموجب فلاحه الى ما كان متصفا به من كريم الخلال وعظيم الخصال فان هذا القائد حيث كان خبيرا بأصول الاولين من الرومانيين وطرائق سيرهم نشأ على يده جيش من العساكر على نسق الجنود الاولية الرومية عزما وانقيادا

وقد يطفئ ذل الاسر والاستعباد في العادة دائما بهجة أعظم الفضائل في الرجال أو يمحوها بالكلية منهم الا هذا البطل الجليل القدر فان حكومة القيصر يوستنيانوس الطاغيانية (أي المؤسسة على الظلم والجور) لم تكن لتخفض قدره العالي العظيم ولا تهضم عقله السامي الفخيم

وأعاد على شرف حكم هذا الملك أيضا أغاى الخريم نرسيس فان هذا المحارب حيث ربي في داخل السراية كان أقرب الناس منزلة اليه وأحظاهم بالامانة لديه لان الملوك من عاداتهم دائما أنهم يعدون جلساءهم وأولياء حضرتهم من أصدق الناس اليهم وأوفاهم ذماما اليهم

ولكن عدم استقامة يوستنيانوس واسرافه وغائلة نهبه وسيئ جوره وشدة ولوعه بالبناء والتغيير والتجديد وتبدل مقاصده وحكم قاس ثقل على الرعية عبؤه بكبر استطالت فيه مدته كانت كل هذه مصائب حقيقية ونوب حدثانية على الدولة الرومانية ممزوجة بنجاح لاطائل تحته وظاهر فخار باطل

وترتب على تلك الفتوحات التي لم يكن جل القصد منها تقوية المملكة وتعضيد شوكتها بل لموجب أحوال خصوصية اقتضتها أنها ذهبت بكل ما هنالك فانه بينما كانت الجيوش الرومانية مشتغلة بتلك الفتوحات أتت أمة أجنبية فعبرت نهر طونه وخربت كلا من اقليم ايليريا ومقدونيا واليونان وشن أهل فارس الاغارة في أربع مرات سواء على بلاد مشرق الرومان حتى لقد أمسوها بقروح مالدا نهامن دواء وكلما كانت تلك الفتوحات الرومية سريعة الحصول متيسرة كانت أوهى أساسا وأقل ثباتا فانه ما استتم فتوح بلاد ايطاليا وأفريقة حتى أغار عليها العدو ثانيا ولزم التصدي لمعاناة فتحها مرة أخرى

وتزوج يوستنيانوس من تياترا اللعب بامرأة طالما عرضت فيه نفسها للنقيصة فكان لها عليه السلطان البالغ وامرة ما ان لها من معادل في كتب التواريخ وحيث كانت لا تزال دائما تشوب جد المصالح المبرية بما فيه حظوظ نفسها وأهواء بنات جنسها أخلت برونق النصرات العظيمة وشانت أنجح المساعي السعيدة

وقد أباحوا في كل عصر وأوان تعدد الزوجات في بلاد المشرق لاضعاف ما للنساء على الرجال في الديار الاوروباوية من السلطة والاقتدار ولكن شرع التزوج بواحدة جار اذ ذاك حكمه في مدينة القسطنطينية فجعل لهذا الجنس على الرجال سلطانا حتى كان ذلك في بعض الاحيان سبب الضعف وقوة الحكومة في الدولة الرومية

وكان أهل مدينة القسطنطينية دائما وأبدا منقسمين الى حزبين حزب الزرق وحزب الخضر وذلك ناشئ ليس الا عن ميل بعض المتفرجين في مناصب اللعب ومحافل الطرب الى بعض المقيمين دون بعض حتى كان لابسو الاخضر من سواقي العربيات ينازعون مع لابسي الازرق منهم قصب السبق في مباديء السباق مغايرة بعضهم في بعض ويقترض كل من الفريقين لذلك ويحتد الى شدة التغيظ والغضب

وكان يعظم التفاقم والشقاق أو يقل بين هذين الحزبين المنتشرين اذ ذاك في جميع مدن المملكة الرومانية بحسب أهمية المدن وصغرها أعني تخلي جزء عظيم أو قليل من أبناء البلد فيها

ولكن هذا التفرق والشقاق بين الامة وان كان في العادة لازما ضروريا للحكومة الجمهورية لحفظها وتأييد بقائها لم يكن الا شؤما على الحكومة الملوكية حيث لا يترتب عليه في العادة دائما الا تغيير الحاكم لا إقامة الشرائع وابطال الجور والتعدي

وحيث كان القيصر يوستنيانوس ينتصر دائما للزرق ويأبى كل انصاف وعدل للخضر أغرى هو نفسه كلا من الفريقين وبذلك قوى جاشهم وحرضهم على البغضاء بينهم

ولم يزل يومئذ ذلك دأبهم وهذا مساقهم الى أن عدلوا عن الشريعة وأبوا حكم القضاة في المدينة فأما الزرق فصاروا لا يخشون للشرائع واجبا لان الامبراطور كان يحميهم منها ويبطل احترام الحزب الاخضر لها حيث عجزت عن حمايتها لهم كالسابق

وانتقضت ذلك مما بينهم جميع روابط المحبة والقرابة واتقى الواجب والشكر وصارت العائلات يدمر بعضهم بعضا بأيديهم فكل سارق أو قاتل كان من حزب الزرق أو مقتول كان من حزب الخضر

وزاد على هذه الحكومة الخارجة عن حد التمييز والمعقولية انها كانت أشد قساوة وجورا فانه ما كفى الامبراطور يوستنيانوس ابتلاؤه جميع رعاياه بظلم عم الخاص والعام حيث كلفهم ما يعيي به المتحمل من الغرامات والبلص الخارجة عن الحد أن صار يقهرهم ويستوجب حسرهم بجميع أنواع الجور والتعدي في خصوص مصالحهم الذاتية

ولا أصدق ببادئ الرأى ماذكره بروكوب فى تاريخه السرى من وصف هذا الملك لان ماذكره هذا المؤرخ فى مصنفاته الاخر من أعظم الثناء وأجل المدح فيه يضعف عندى سند تاريخه السرى المذكور اذ يصفه فيه بأنه من أبلد الطغاة على الجور وأعتاهم حكما

ولكننى أعتمد أمرين يرجحان عندى صحة دليل التاريخ السرى على غيره الاول ملائمة نص هذا التاريخ أتم الملائمة لما تبدى على هذه المملكة من عظيم الضعف فى أواخر أيام هذا الحكم وأحكام الملوك التى بعده والثانى وهو أثر باق لم يزل الى الآن بيننا قوانين هذا الامبراطور وشرائعه التى تغيرت فيها القواعد الفقهية فى ظرف سنوات قلائل أكثر مما تغيرته فى الثلثمائة سنة الاخيرة من حكومة الملوك الفرنساوية ببلاد أوروبا وتلك التغييرات حاصل أغلبها من أمور قليلة الاهمية جدا حتى لا يعلم ما السبب الذى حمل هذا الامبراطور المشرع على تغيير الحكم فيها اللهم الا أن يرجع فى تأويل ذلك الى تاريخه السرى ويقال ان هذا القيصر كان يبيع بثمن المال كلا أوامره وأحكام شرائعه

ولكن الذى أضر كثيرا بقوام السياسة فى الحكومة هو ماعزم عليه هذا القيصر من أن يصير جميع الناس على شرعة واحدة ورأى مشترك فى أمر الديانة بصدد أحوال لا توافق مقتضى الحال اقتضت أن جل همته فى ذلك صارت سدى ومحض اعتداء باطل

وذلك أن الرومانيين كانوا قد حصنوا مملكتهم وأيدوا حجتها بادخال جميع مذاهب الديانة وطرق العبادة فيها فلما أن أبطلوا اتباعها لهذا الامر جميع المذاهب غير الحاكمة فيها واحدا بعد واحد آل أمرها فيما بعد الى أن لا شئ من لازم الحصانة

وكانت اذ ذاك تلك المذاهب عبارة عن أمم كاملة فمنهم من بقوى على دينهم بعد فتح الرومانيين لهم كالسامرية واليهود وآخرون تفرقوا شيعا فى بعض الولايات كأتباع مونتان فى ولاية افريجية والمانوية والسباتية والاريانوسية فى أقاليم أخر وماعدا هؤلاء حزب عظيم من أهل البادية لم يزالوا على عبادة الاوثان معاندين بدين لهم موافق لخشونة طباعهم

فلما تحق يوستنيانوس تلك المذاهب سواء بسيفه أو بأحكام شرائعه وكان اجباره لهم على العصيان والخروج عليه اجبار الله على قطيعتهم وتبديد شملهم صيرعدة أقاليم من بعدهم الى البوار وظن أنه بذلك قد أكثر عدد المؤمنين بدين المسيح على أنه أقل عداد الناس

وذكر المؤرخ بروكوب فى تاريخه مانصه انه بانقراض الامة السامرية صار اقليم فلسطين من بعدهم خلاء قفرا والذى يستوجب العجب فى هذه الواقعة هو أنهم سعوا فى اضعاف قوة الدولة غيرة على الدين فى جهة من المملكة ساغ لجيش العرب بعد عدة دول الدخول منها لاشهار دين الاسلام فيها فهدموا قواعد دينهم ومزقوه

ومن الخلاف المعلم أنه بينما كان الامبراطور يوستنيانوس يلتزم غاية التدقيق فى موافقة الحدود الدينية والعقائد اللاهوتية كان هو ونفسه لا يتفق مع الامبراطورة زوجته فى أوجب المسائل التوحيدية فكان يعتمد فى ذلك على ما يقول به مجمع مدينة خلدونيا وكانت هى تنتصر للمناقضين لقولهم قال المؤرخ ايواجره سواء كانت مناقضتهم له باخلاص ذمة أو ابتغاء موافقتها

ومن قرأ تاريخ بروكوب واطلع على مبانى يوستنيانوس من الحصون والقلاع التى أنشأها هذا الملك فى جميع جهات المملكة خطر بباله البتة أن دولة هذا الملك كانت جليلة القدر عظيمة الشان بخلاف الواقع كلية

ودليل ذلك أن الرومانيين فى مبدأ الامر لم يكن عندهم شئ من تلك الحصون مطلقا فكانوا يجعلون جل اعتمادهم فى تحصين المملكة على عدة الجنود حيث كانوا يرتبونهم على طول شواطئ الانهار ويبنون عليها من مسافة الى أخرى أبراجا يسكن العساكر فيها للمحافظة

ولكنه لما صارت لهوم جنودهم عاطلة وجمية جيوشهم باطلة أو لم يكن عندهم فى أغلب الاحيان عساكر أبدا وقصرت الثغور عن حماية الداخل احتاج الامر الى احكامها وتحصين مقامها فكثرت حينئذ عندهم الحصون وقلت الجنود وكثرت أماكن التحفظ وقل الامان وحيث تعذرت سكنى الخلاء الا بجوار الاماكن الحصينة أشادوا حصونا فى جميع الجهات فكان مثل المملكة يومئذ كمثل بلاد فرانسا فى زمن الدولة النورمندية لم تضعف قط مثل ضعفها حين صارت جميع قراها محصنة بالاسوار

فليست حينئذ جريدة أسماء القلاع والحصون التى أسسها الامبراطور يوستنيانوس فى زمانه وملأ بها المؤرخ بروكوب صفحات كاملة من كتابه سوى مجرد أدلة شاهدة بضعف شوكة المملكة الرومانية يومئذ (من كتاب برهان البيان وبيان البرهان)

ذكر خلافة هرون الرشيد

بويع بالخلافة فى سنة سبعين ومائة كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم كان يحج سنة ويغزو سنة كذلك مدة خلافته الاسنين قليلة قالوا وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة وحج ماشيا ولم يحج خليفة ماشيا غيره وكان اذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم واذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة وكان يتشبه فى أفعاله بالمنصور الا فى بذل المال فانه لم ير خليفة أسمح منه بالمال وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر وكان يحب الشعر والشعراء ويميل الى أهل الادب والفقه ويكره المراء فى الدين وكان يحب المديح لاسيما من شاعر فصيح ويجزل العطاء عليه

وكان يتواضع للعلماء قال أبو معاوية الضرير وكان من علماء الناس أكلت مع الرشيد يوما فصب على يدى الماء رجل فقال لى يا أبا معاوية أتدرى من صب الماء على يدك فقلت لا يا أمير المؤمنين قال أنا فقلت يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا اجلالا للعلم قال نعم

فى أيامه خرج يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب

(شرح كيفية الحال فى ذلك) كان يحيى بن عبد الله قد خاف مما جرى على أخويه النفس الزكية وابراهيم قتيل باخمرى فمضى الى الديلم فاعتقدوا فيه استحقاق الامامة وبايعوه واجتمع اليه الناس من الامصار وقويت شوكته فاغتم الرشيد لذلك وندب اليه الفضل بن يحيى فى خمسين ألفا وولاه جرجان وطبرستان والرى وغير ذلك فتوجه الفضل بالجنود فلطف بيحيى بن عبد الله وحذره وخوفه ورغبه فمال يحيى الى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد وأن يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بنى هاشم فأجابه الرشيد الى ذلك وسر به وكتب له أمانا بليغا بخطه وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء ومشايخ بنى هاشم وسير الامان مع هدايا وتحف فقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيد فى أول الامر بكل ما أحب ثم حبسه عنده واستفتى الفقهاء فى نقض الامان فمنهم من أفتى بصحته فحاجه ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله ثم قتله بعد ظهور آية له عظيمة

شرح الآية التى ظهرت فى قضية يحيى بن عبد الله

حضر رجل من آل الزبير بن العوام عند الرشيد وسعى بيحيى وقال انه بعد الامان فعل وصنع ودعا الناس الى نفسه فاحضره الرشيد من محبسه وجمع بينه وبين الزبيرى وسأله عن ذلك فانكر فواقفه الزبيرى فقال له يحيى ان كنت صادقا فاحلف فقال الزبيرى والله الطالب الغالب وأراد أن يتم اليمين فقال له يحيى دع هذه اليمين فان الله تعالى اذا مجده العبد لم يعجل عقوبته ولكن احلف لى بيمين البراءة وهى يمين عظمى صورتها أن يقول عن نفسه برئ من حول الله وقوته ودخل فى حول نفسه وقوتها ان كان كذا وكذا فلما سمع الزبيرى هذه اليمين ارتاع لها وقال ما هذه اليمين الغريبة وامتنع من الحلف بها فقال له الرشيد ما معنى امتناعك ان كنت صادقا فيما تقول فما خوفك من هذه اليمين فحلف بها فخرج من المجلس حتى ضرب برجله ومات وقبل ما انقضى النهار حتى مات فحملوه الى القبر وحطوه فيه وأرادوا أن يطموا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا التراب فيه ذهب التراب ولا ينطم القبر فعلموا أنها آية سماوية فسقفوا القبر وراحوا والى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان فى ميميته بقوله

ياجاهـــدا فى مساويهم يكتمها * عذر الرشيد يحيى كيف ينكتم
ذاق الزبيرى غب الحنث وانكشفت * عن ابن فاطمة الاقوال والتهـم

ومع ظهور مثل هـذه الآية العظيمة قتـل يحيى فى الحبس شر قتلة وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا وأوسعها رقعة مملكة جبى الرشيد معظم الدنيا وكان أحد عماله صاحب مصر ولم يجتمع على باب خليفـة من العلماء والشـعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنيين ما اجتمع على باب الرشيد وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه الى أعلى درجة وكان فاضلا شاعرا راوية للاخبار والآثار والاشعار صحيح الذوق والتمييز مهيبا عند الخاصة والعامة قبض على موسى بن جعفر عليهما السلام وأحضره فى قبة الى بغداد فحبسه بدار السندى بن شاهك ثم قتل وأظهر أنه مات حتف أنفه

(شرح كيفية الحال فى ذلك) كان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه قد وشى به الى الرشيد وقال له ان الناس يحملون الى موسى خمس أموالهم ويعتقدون أمامتـه وأنه على عزم الخروج عليك وأكثر فى القول فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمه وأقلقه ثم أعطى الواشى مالا أحاله به على البلاد فلم يتمتع به وما وصل المال من البلاد الا وقد مرض مرضة شديدة ومات فيها وأما الرشيد فانه حج فى تلك السنة فلما ورد المدينة قبض على موسى بن جعفر وحمله فى قبة الى بغداد فحبسه عند السندى بن شاهك وكان الرشيد بالرقة فأمر بقتله فقتل قتلا خفيا ثم أدخلوا عليه جماعة من العدول بالكرخ ليشاهدوه اظهارا أنه مات حتف أنفه صلوات الله عليه وسلامه ومات الرشيد بطوس وكان خرج الى خراسان لمحاربة رافع بن الليث بن نصر بن سيار وكان هـذا رافع قد خرج وخلع الطاعة وتغلب على سمرقند وقتل عاملها وملكها وقويت شوكته فخرج الرشيد بنفسه اليه فمات بطوس فى سنة ثلاث وتسعين ومائة

شرح حال الوزارة فى أيامه

لما بويع بالخلافة استوزر كاتبه قبل الخلافة يحيى بن خالد بن برمك وظهرت دولة بنى برمك من حينئذ (شرح أحوال الدولة البرمكية وذكر مبدئها وما آلها) كانوا قديما على دين المجوس ثم أسلم من أسلم منهم وحسن اسلامهم وهـذه الدولة البرمكية كانت غرة فى جبهة الدهر وتاجا على مفرق العصر ضربت بمكارمها الامثال وشدت اليها الرحال ونيطت بها الامال وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ومنحتهما أوفر اسعادها فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة والبحور زاخرة والسيول واقعة

والغيوث ماطرة أسواق الآداب عندهم نافقة ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية والدنيا في أيامهم عامرة وأبهة المملكة ظاهرة وهم ملجأ اللهيف ومعتصم الطريد ولهم يقول أبو نواس

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم * بنى برمك من رائحين وغاد

(ذكر وزارة يحيى بن خالد للرشيد) لما جلس الرشيد على سرير المملكة استوزر يحيى بن خالد بن برمك وكان كاتبه ونائبه ووزيره قبل الخلافة فنهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض وسد الثغور وتدارك الخلل وجبى الاموال وعمر الاطراف وأظهر رونق الخلافة وتصدى لمهمات المملكة وكان كاتبا بليغا لبيبا أديبا شديدا صائب الآراء حسن التدبير ضابطا لما تحت يده قويا على الامور جوادا يسارى الريح كرما وجودا ممدحا بكل لسان حليما عفيفا وقورا مهيبا وله يقول القائل

لا ترانى مصافحا كف يحيى * انى ان فعلت ضيعت مالى

لو يمس البخيل راحة يحيى * لسخت نفسه ببذل النوال

ومن آراء يحيى السديدة ما قاله للهادى وقد عزم على أن يخلع أخاه هرون من الخلافة ويبايع لابنه جعفر بن الهادى وكان يحيى كاتب الرشيد وهو يترجى ان يتولى هرون الخلافة فيصير هو وزير الدولة فلما خلا الهادى بيحيى ووهب له عشرين ألف دينار وحادثه فى خلع هرون أخيه والمبايعة لجعفر ابنه فقال له يحيى يا أمير المؤمنين ان فعلت حملت الناس على نكث الايمان ونقض العهود وتجرأ الناس على مثل ذلك ولو تركت أخاك هرون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد فى بيعته فترك الهادى ذلك مدة ثم غلب عليه حب الولد فأحضر يحيى مرة ثانية وفاوضه فى ذلك فقال له يحيى يا أمير المؤمنين لو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ أفترى كانت خلافته تصح وكان مشايخ بنى هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة اليه قال لا قال يحيى فدع هذا الامر حتى تأتيه عفوا ولو لم يكن المهدى بايع لهرون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بنى أبيك فصوب الهادى رأيه وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادى يحيى بن خالد عنده

ومن مكارمه قيل ان الرشيد لما نكب البرامكة واستأصل شأفتهم حرم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذة على ذلك فاجتاز بعض الحرس ببعض الخربات فرأى انسانا واقفا وفى يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة وهو ينشده ويبكى فأخذه الحرس وأتى به الى الرشيد وقص عليه الصورة فاستحضره الرشيد وسأله عن ذلك فاعترف به فقال له الرشيد أما سمعت تحريمى لرثائهم لافعلن بك ولاصنعن فقال يا أمير المؤمنين ان أذنت لى فى حكاية حالى حكيتها ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال قل

قال انى كنت من أصغر كتاب يحيى بن خالد وأرقهم حالا فقال لى يوما أريد أن تضيفنى فى دارك يوما فقلت يا مولانا أنا دون ذلك وداري لا تصلح لهذا قال لابد من ذلك قلت فان كان لابد فأمهلنى مدة حتى أصلح شأنى ومنزلى ثم بعد ذلك أنت ورأيك قال كم أمهلك قلت سنة قال كثير قلت فشهورا قال نعم فمضيت وشرعت فى اصلاح المنزل وتهيئة أسباب الدعوة فلما تهيأت الاسباب أعلمت الوزير بذلك فقال نحن غدا عندك فمضيت وتهيأت فى الطعام والشراب وما يحتاج اليه فحضر الوزير فى غد ومعه ابناه جعفر والفضل وعدة يسيرة من خواص اتباعه فنزل عن دابته ونزل ولداه جعفر والفضل ومن معه وقال يا فلان أنا جائع فعجل لى بشئ فقال لى الفضل ابنه الوزير يحب الفراريج المشوية فعجل منها ما حضر فدخلت وأحضرت شيأ فأكل الوزير ثم قام يتمشى فى الدار وقال يا فلان فرحنا فى دارك فقلت يا مولانا هذه هى دارى ليس لى غيرها قال بلى لك غيرها قلت والله ما أملك سواها فقال هاتوا بناء فلما حضر قال له افتح فى هذا الحائط بابا فمضى ليفتح فقلت يا مولانا كيف يجوز ان يفتح باب الى بيوت الجيران والله أوصى بحفظ الجار قال لا بأس فى ذلك ثم فتح الباب فقام الوزير وأبناؤه فدخلوا فيه وأنا معهم فخرج منه الى بستان حسن كثير الاشجار والماء يتدفق فيه وبه من المقاصير والمسكن ما يروق كل ناظر وفيه من الآلات والفرش والخدم والجوارى كل جميل بديع فقال هذا المنزل وجميع ما فيه لك فقبلت يده ودعوت له وتحققت القصة فاذا هو من يوم حادثنى فى معنى الدعوة قد أرسل واشترى الاملاك المجاورة لى وعمرها دارا حسنة ونقل اليها من كل شئ وأنا لا أعلم وكنت أرى العمارة وأحسبها لبعض الجيران فقال لابنه جعفر يا بنى هذا منزل وعيال فالمادة من أين تكون له قال جعفر قد أعطيته الضيعة الفلانية بما فيها وسأكتب له بذلك كتابا فالتفت الى ابنه الفضل وقال له يا بنى نحن الآن الى أن يدخل دخل هذه الضيعة ما الذى ينفق فقال الفضل على عشرة آلاف دينار أحملها اليه فقال فعجلا له ما قالتما فكتب لى جعفر بالضيعة وحمل الفضل الى المال فأثريت وارتفعت حالى وكسبت بعد ذلك معه مالا طائلا أنا أتقلب فيه الى اليوم فوالله يا أمير المؤمنين ما أجد فرصة أتمكن فيها من الثناء عليهم والدعاء لهم الا انتهزتها مكافأة لهم على احسانهم ولن أقدر على مكافأته فان كنت قائلى على ذلك فافعل ما بدا لك فرق الرشيد لذلك وأطلقه وأذن لجميع الناس فى رثائهم

قيل ان هرون الرشيد حج ومعه يحيى بن خالد بن برمك ومعه ولداه الفضل وجعفر فلما وصلوا الى المدينة جلس الرشيد ومعه يحيى فأعطيا الناس وجلس الامين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس فأعطوا فى تلك السنة ثلاث أعطيات ضربت بكثرتها الامثال وكانوا يسمونه عام الاعطيات الثلاث وأثرى الناس بسبب ذلك وفى ذلك يقول الشاعر

أتاتابنو الآمال من آل برمك * فياطيب أخبار وياحسن منظر
لهم رحلة فى كل عام الى العدا * وأخرى الى البيت العتيق المستر
اذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت * بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى * بمكة ما تحوى ثلاثة أقمر
فما خلقت الا لجود أكفهم * وأقدامهم الا لاعواد منبر
اذا راض يحيى الامر ذلت صعابه * وناهيك من راع له ومدبر

كان يقول يحيى ما خاطبنى أحد الا هبته حتى يتكلم فاذا تكلم كان بين اثنتين اما أن تزيد هيبته أو تضمحل وكان يقول المواعيد شباك الكرام يصيدون بها محامد الاحرار كان يحيى اذا ركب يعد صررا فى كل صرة مائتا درهم يدفعها الى المتعرضين له

سيرة ولده الفضل بن يحيى

كان الفضل من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره وكان قد أرضعته أم هرون الرشيد وأرضعت أمه الرشيد وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة

كفى لك فخرا ان أكرم حرة * غذتك بثدى والخليفة واحد
لقد زنت يحيى فى المشاهد كلها * كما زان يحيى خالدا فى المشاهد

ولاه الرشيد خراسان فخرج اليه أبو الهول الشاعر مادحا معتذرا من شعر كان هجاه به فانشده

سرى نحوه من غضبة الفضل عارض * له لجة فيها البوارق والرعد
وكيف ينام الليل ملق فراشه * على مدرج يعتاده الاسد الورد
ومالى الا الفضل بن يحيى بن خالد * من الجرم ما يخشى على مثله الحقد
فجد بالرضى لا أبتغى منك غيره * ورأيك فيما كنت عودتنى نعد

فقال له الفضل لا أحتمل تفريقك بين رضاى واحسانى وهما مقرونان فان أردتهما معا والا فدعهما معا ثم وصله ورضى عنه

حدث اسحق بن ابراهيم الموصلى قال كنت قد ربيت جارية وثقفتها وعلمتها حتى برعت ثم أهديتها الى الفضل بن يحيى فقال لى يا اسحق ان رسول صاحب مصر قد ورد الى يسألنى حاجة أقترحها عليه فدع هذه الجارية عندك فانى سأطلبها وأعلمه أنى أريدها فانه سوف يحضر اليك ويساومك فيها فلا تأخذ فيها أقل من خمسين ألف دينار قال اسحق فمضيت بالجارية الى منزلى فجاء الى رسول صاحب مصر وسألنى عن الجارية فأخرجتها اليه فبذل فيها عشرة آلاف دينار فامتنعت فصعد الى عشرين ألف دينار فامتنعت فصعد الى ثلاثين ألفا فما ملكت نفسى حتى قلت له بعتك وسلمت الجارية اليه

ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات وخفقت العيدان وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وكان شديد الوقار والدين والحشمة وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه ويبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يفعل فاتفق أن هذا عبد الملك بن صالح حضر الى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدم جعفر بن يحيى بالاذن له وأن لا يدخل غيره فأذن الحاجب له فدخل عبد الملك بن صالح العباسي على جعفر بن يحيى فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم وفطن عبد الملك بن صالح أيضا للقصة وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى فانبسط عبد الملك وقال لا بأس عليكم أحضروا لنا من هذه الثياب المصبغة شيأ فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه وقال اسقوني من شرابكم فسقوه رطلا وقال ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ثم باسطهم ومازحهم ومازال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال عنه انقباضه وحياؤه ففرح جعفر بذلك فرحا شديدا وقال له ما حاجتك قال جئت أصلحك الله في ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها أولها أن على دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه ثانيها أريد ولاية لابني يشرف بها قدره وثالثها أريد أن تزوج ولدي بابنة الخليفة فانها بنت عمه وهو كفؤ لها فقال جعفر بن يحيى قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث أما المال ففي هذه الساعة يحمل الى منزلك وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا فانصرف في أمان الله فراح عبد الملك الى منزله فرأى المال قد سبقه ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وعرفه ما جرى وأنه قد ولاه مصر وزوجه ابنته فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية فخرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد

وقيل ان جعفر بن يحيى كان بينه وبين صاحب مصر عداوة ووحشة وكان كل منهما مجانبا للآخر فزور بعض الناس كتابا عن لسان جعفر بن يحيى الى صاحب مصر مضمونه أن حامل هذا الكتاب من أخص أصحابنا وقد ثار التفرج في الديار المصرية فأريد أن تحسن الالتفات اليه وبالغ في الوصية ثم أخذ الكتاب ومضى الى مصر وعرضه على صاحبها فلما وقف عليه تعجب منه وفرح به الا أنه حصل عنده ارتياب وشك في الكتاب فأكرم الرجل وأنزله في دار حسنة وأقام له ما يحتاج اليه وأخذ الكتاب منه وأرسله الى وكيله ببغداد وقال له قد وصل شخص من أصحاب الوزير بهذا الكتاب وقد ارتبت به فأريد أن تتفحص لي عن حقيقة الحال في ذلك وهل هذا خط الوزير أم لا

وأرسل كتاب الوزير صحبة مكتوب الى وكيله فجاء الوكيل الى وكيل الوزير وحدثه بالقصة وأراه الكتاب فأخذه وكيل الوزير ودخل الى الوزير وعرفه الحال فلما وقف جعفر بن يحيى على الكتاب علم أنه مزور عليه وكان عنده جماعة من ندمائه ونوابه فرمى الكتاب عليهم وقال لهم أهذا خطى فتأملوه وأنكروه كلهم وقالوا هذا مزور على الوزير فعرفهم صورة الحال وأن الذى زور هذا الكتاب موجود بمصر عند صاحبها وأنه ينتظر عود الجواب بتحقيق حاله وقال لهم ماترون وكيف ينبغى أن نفعل فى هذا فقال بعضهم ينبغى أن يقتل هذا الرجل حتى تنحسم هذه المادة ولا يرجع أحد يتجرأ على مثل هذا الفعل وقال آخر ينبغى أن تقطع يمينه التى زور بها هذا الخط وقال آخر ينبغى أن يوجع ضربا ويطلق حال سبيله وكان أحسنهم محضرا من قال ينبغى أن تكون عقوبته على هذا الفعل حرمانه وأن يعرف صاحب مصر بحاله ليحرمه فيكفيه من العقوبة أنه قد قطع هذه المسافة البعيدة من بغداد الى مصر ثم يرجع خائبا فلما فرغوا من حديثهم قال جعفر سبحان الله أليس فيكم رجل رشيد قد علمتم ما كان بينى وبين صاحب مصر من العداوة والمجانبة وان كل واحد منا كانت تمنعه عزة النفس أن يفتح باب الصلح فقد قيض الله لنا رجلا فتح بيننا باب المصالحة والمكاتبة وأزال بيننا تلك العداوة فكيف يكون جزاؤه ماذكرتم من الاساءة ثم أخذ القلم وكتب على ظاهر الكتاب الى صاحب مصر سبحان الله كيف حصل لك الشك فى خطى هذا خط يدى والرجل من أعز أصحابى وأريد أن تحسن اليه وتعيده الى سريعا فانى مشتاق اليه محتاج الى حضوره فلما وصل الكتاب وفى ظاهره خط الوزير الى صاحب مصر كاد يطير من الفرح وأحسن الى الرجل غاية الاحسان وواصله بمال كثير وتحف جميلة ثم ان الرجل رجع الى بغداد وهو أحسن الناس حالا فحضر الى مجلس جعفر ووقع يقبل الارض ويبكى فقال له جعفر من أنت أخبرنى قال يامولانا أنا عبدك وصنيعتك المزور الكذاب المتجرئ فعرفه جعفر وبش به وأجلسه بين يديه وسأله عن حاله وقال له كم وصل اليك منه فقال مائة ألف دينار فاستقلها جعفر وقال لازمنا حتى نضاعفها لك فلازمه مدة فكسب معه مثلها

ومازالت دولة البرامكة فى علو وارتفاع وتزايد حتى انحرفت عنهم الدنيا أمارة تدل على انحراف دولتهم

حدث بختيشوع الطبيب قال دخلت يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينهم وبينه عرض دجلة قال فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال جزى الله يحيى خيرا تصدى للامور وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة ثم دخلت اليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة فقال استبد يحيى بالامور دونى فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها الا اسمها قال فعلمت أنه سينكبهم ثم نكبهم عقيب ذلك

شرح السبب فى نكبة البرامكة وكيفية الحال فى ذلك

اختلف أصحاب السير والتواريخ فى ذلك فقيل كان سبب ذلك أن الرشيد كلف جعفر بن يحيى قتل رجل من آل أبى طالب فتحرج جعفر من ذلك وأطلق الطالبى وسعى الى الرشيد بجعفر فقال له مافعل الطالبى قال هو فى الحبس قال الرشيد بحياتى فقطن جعفر فقال لا وحياتك ولكن أطلقته لانى علمت أنه ليس عنده مكروه فقال له الرشيد نعم مافعلت فلما قام جعفر قال الرشيد قتلنى الله ان لم أقتلك ثم نكبهم

وقيل ان أعداء البرامكة مثل الفضل بن الربيع مازالوا يسعون بهم الى الرشيد ويذكرون له استبدادهم بالملك واحتجانهم للاموال حتى أوغروا صدره فاوقع بهم

وقيل ان جعفرا والفضل ابنى يحيى ظهر منهما من الادلال مالا يحتمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك

وقيل ان يحيى بن خالد بن برمك وهو بمكة يطوف حول البيت ويقول اللهم ان كان رضاك فى أن تسلبنى أهلى ومالى وولدى فاسلبنى الا الفضل ولدى ثم ولى فلما مشى قليلا عاد وقال يارب انه سمح بمثلى أن يستثنى عليك اللهم والفضل فنكبهم الرشيد بعد قليل وقيل غير ذلك

شرح مقتل جعفر بن يحيى والقبض على أهله

كان الرشيد قد حج فلما عاد من الحج سار من الحيرة الى الانبار فى السفن وجعل يشرب وركب جعفر ابن يحيى الى الصيد وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى وتحف الرشيد وهداياه تأتيه وعنده بختيشوع الطبيب وأبو زكار الاعمى يغنيه فلما أطل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان مبغضا لجعفر وقال اذهب فجئنى برأس جعفر ولا تراجعنى فوافاه مسرور بغير اذن وهجم عليه وأبو زكار يغنيه

فلا تبعد فكل فتى سيأتى * عليه الموت يطرق أو يغادى

فلما دخل مسرور قال له جعفر بن يحيى لقد سررتنى بمجيئك وسؤتنى بدخولك على بغير اذن فقال الذى جئت به أعظم أجب أمير المؤمنين الى مايريد بك فوقع على رجليه فقبلهما وقال له عاود أمير المؤمنين فان الشراب قد حمله على ذلك وقال دعنى أدخل دارى فأوصى فقال الدخول لا سبيل اليه وأما الوصية فاوصى بما بدا لك فاوصى ثم حمله الى منزل الرشيد وعدل به الى قبة وضرب عنقه وأتى برأسه على ترس الى الرشيد وبدنه فى نطع ووجه الرشيد فقبض على أبيه واخوته وأهله وأصحابه وحبسهم بالرقة واستأصل شأفتهم ومن ظريف ماوقع فى ذلك مارواه العمرانى المؤرخ قال حدث فلان قال دخلت الديوان فنظرت فى بعض تذاكر النواب فوجدت فيها أربعمائة ألف دينار

ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير ثم دخلت بعد أيام فرأيت تحت ذلك عشرة قراريط ثمن نفط وبوارى لاحراق جثة جعفر بن يحيى فعجبت من ذلك ثم استوزر الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع وكان حاجبه

وزارة أبى العباس الفضل بن الربيع

فكان حاجبا للمنصور والمهدى والهادى والرشيد فلما نكب الرشيد البرامكة استوزره بعدهم كان الفضل بن الربيع شهما خبيرا باحوال الملوك وآدابهم ولما ولى الوزارة تهوس بالادب وجمع اليه أهل العلم فحصل منه ما أراد فى مدة يسيرة وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين اليه فمن شعره فى آل الربيع

عباس عباس اذا اضطرم الوغى * والفضل فضل والربيع ربيع

ومازال الفضل بن الربيع على وزارته الى أن مات الرشيد بطوس فجمع الفضل العسكر ومافيه ورجع الى بغداد انتهى ذكر خلافة هرون الرشيد

(من كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية)

ذكر خلافة محمد الامين

وبويع محمد بن هارون فى اليوم الذى مات فيه هارون الرشيد وهو يوم السبت لاربع ليال خلون من جمادى الاولى بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة وتقدم ببيعته رجا الخادم وكان القيم ببيعته الفضل بن الربيع وكان محمد يكنى بأبى موسى وأمه زبيدة ابنة جعفر بن أبى جعفر وكان مولده بالرصافة وقتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوما ودفنت جثته ببغداد وحمل رأسه الى خراسان وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وكان أصغر من المأمون بستة أشهر وكانت أيامه من خلعه الى مقتله ستة ونصفا وثلاثة عشر يوما حبس فيها يومين

ونذكر جملا من أخباره وسيره ولمعا مما كان فى أيامه

قبض الرشيد والمأمون بمرو وبعث صالح بن الرشيد رجا الخادم مولى محمد الامين الى محمد فأتاه الخبر فى اثنى عشر يوما الى مدينة السلام يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة وذكر العتبى وغيره ان زبيدة رأت فى المنام ليلة علقت بمحمد كأن ثلاث نسوة دخلن عليها وهى بمجلس فقعدا ثنتان عن يمينها وواحدة عن يسارها فدنت احداهن فجعلت يدها على بطن أم جعفر ثم قالت ملك عظيم البذل ثقيل الحمل نكد الامر ثم فعلت الثانية كما فعلت الاولى وقالت ملك ناقص الجد

مغلول الحد ممذوق الود تجوز أحكامه وتخونه أيامه ثم فعلت الثالثة كما فعلت الثانية وقالت قصاف عظيم الايلاف كثير الخلاف قليل الانصاف قالت فاستيقظت وأنا فزعة فلما كان في الليلة التي وضعت فيها محمدا دخلن علي وأنا نائمة كما كن دخلن فقعدن عند رأسي ونظرن في وجهي ثم قالت احداهن شجرة نضره وريحانة حسنة وروضة زاهرة ثم قالت الثانية عين غدقة قليل لبثها سريع فناؤها عجل ذهابها وقالت الثالثة عدو لنفسه ضعيف في بطشه سريع الى غشه مزال عن عرشه فاستيقظت وأنا فزعة بذلك وأخبرت بذلك بعض قهارمتي فقالت بعض ما يطرق النائم ثم وعبث من عبث التوابع فلما تم فصاله أخذت مرقدي ومحمد أمامي في مهده اذ بهن قد وقفن على رأسي وأقبلن على ولدي محمد فقالت احداهن ملك جبار متلاف مهدار بعيد الآثار سريع العثار ثم قالت الثانية ناطق مخصوم ومحارب مهزوم وراغب محروم وشقي مهموم وقالت الثالثة أحفروا قبره ثم شقوا لحده وقدموا أكفانه وأعدوا جهازه فان موته خير من حياته قالت فاستيقظت وأنا مضطربة وجلة وسألت مفسري الاحلام والمنجمين فكل يخبرني بسعادته وحياته وطول عمره وقلبي يأبى ذلك ثم زجرت نفسي وقلت هل يدفع القدر أو يقدر أحد أن يدفع عن أحبابه الاجل

ومات أبو بكر بن عياش الكوفي وهو ابن ثمان وتسعين سنة بعد موت الرشيد بثماني عشرة ليلة ولما هم محمد بخلع المأمون شاور عبد الله بن حازم فقال له أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تكون أول الخلفاء نكث عهده ونقض ميثاقه واستخف بيمينه فقال أسكت لله أبوك فعبد الملك بن صالح كان أفضل منك رأيا حيث يقول لا يجتمع لفلان في أجمة وجمع القواد وشاورهم فاتبعوه في مراده الى أن بلغ الى هرثمة بن حازم فقال يا أمير المؤمنين ان ينصحك من كذبك وان يغشك من صدقك ولا تجرئ القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك فان الغادر مخذول والناكث مغلول ودخل علي بن عيسى بن ماهان فتبسم محمد وقال تكن شيخ هذه الدعوة وباب هذه الدولة لا يخالف امامه ولا يوهن طاعته ثم رفعه الى موضع ما رفعه اليه فيما مضى وكان علي بن عيسى أول من أجاب الى خلع المأمون فسيره في جيش عظيم نحو المأمون فلما قرب من الري قيل له ان طاهر بن الحسين مقيم بها وقد كان يظن أن طاهرا لا يثبت له فقال ما طاهر الا شوكة من أغصاني وشرارة من ناري وما مثل طاهر يؤمر على جيش وما بينه وبين الامين الا أن تقع عينه على سوادكم فان السخال لا تقوى على نطاح الكباش والثعالب لا تقدر على لقاء الاسد فقال له اينه ابعث طلائع وارتد موضعا لعسكرك فقال ليس طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ ان حال طاهر يؤدي الى أمرين اما أن يتحصن بالري فيثب به أهلها أو يكفونا مؤنته

أو يخليها ويدبر راجعا وقد قربت حيوانا منه فقال له ابنه ان الشرارة ربما صارت ضراما فقال ان طاهرا ليس قرنا في هذا الموضع وانما يحترس الرجال من أقرانها وسار على بن عيسى وبث عساكره من الري وتبين ما عليه طاهر من الجد وأهبة الحرب وضم الاطراف فعدل الى رساتيق من رساتيق الري متياسرا عن الطريق فنزل وانبسطت عساكره وأقبل طاهر في نحو من أربعة آلاف فارس فاشرف على عساكر على بن عيسى وتبين كثرتها وعدتها فعلم أن لا طاقة له بذلك الجيش فقال لخواصه ومن معه نجعلها خارجية وكردس خيله كراديس وصمد في نحو القلب في سبعمائة من الخوارزمية وغيرهم من فرسان خراسان وخرج اليه من القلب العباس بن الليث مولى العهد وكان فارسا فقصده طاهر وضم يديه على سيفه فأتى عليه وكان على على برذون كميت أرجل وتمالا على رأسه الرجال وتنازعوا في خاتمه ورأسه فذبحه رجل يعرف بطاهر بن الراجي وقبض آخر على خصلة من شعر لحيته وآخر على خاتمه وكان سبب هزيمة الجيش ضربة طاهر بيديه جميعا للعباس بن الليث وبذلك سمي طاهر ذا اليمينين لجمعه يديه على السيف

وذكر أحمد بن هشام وكان من وجوه القواد قال جئت الى مضرب طاهر وقد توهم أني قتلت في المعركة ومعي رأس على فقال البشرى هذه خصلة من رأس على مع غلامي في المخلاة فطرحه قدامه ثم أتى بجثته وقد شدت يداه ورجلاه كما يفعل بالدواب اذا ماتت فأمر به طاهر فألقي في بئر وكتب الى ذي الرياستين فكان في الكتاب أطال الله بقاك وكبت أعداك كتابي اليك ورأس على بن عيسى بين يدي وخاتمه في أصبعي والحمد لله رب العالمين فسر المأمون بذلك وسلم عليه في ذلك الوقت بالخلافة

وقد كانت أم جعفر لا تعلق من الرشيد فشاور بعض مجالسيه من الحكماء وشكا ذلك اليه فاشار عليه بان يغيرها فان ابراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده سارة فلم تكن تعلق منه فلما وهبت له هاجر علقت منه باسماعيل فغارت سارة عند ذلك فعلقت باسحاق فاشترى الرشيد أم المأمون فاستخلاها فعلقت بالمأمون فغارت أم جعفر عند ذلك فعلقت بمحمد وقد قدمنا التنازع في ذلك أعني قصص ابراهيم واسماعيل واسحاق وقول من ذهب الى أن اسحاق هو المأمور بذبحه ومن قال بل اسماعيل وماذكر كل فريق منهم وقد تناظر في ذلك السلف والخلف فمن ذلك ما جرى بين عبد الله بن عباس وبين مولاه عكرمة وقد قال عكرمة من المأمور بذبحه فقال اسماعيل واحتج بقول الله عز وجل ومن وراء اسحاق يعقوب ألا ترى أنه بشر ابراهيم بولادة اسحاق فكيف يأمره بذبحه فقال له عكرمة أنا أؤاخذك ان الذبيح اسحاق من القرآن واحتج بقول الله عز وجل وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث وبتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق فنعمته على ابراهيم أن نجاه من النار ونعمته على اسحاق أن فداه بالذبح

وكانت وفاة عكرمة مولى ابن العباس سنة خمس ومائة ويكنى أبا عبد الله ومات في اليوم الذي مات فيه كثير عزة فقال الناس مات عظيم الفقهاء وكبير الشعراء وفيها كانت وفاة الشعبي

وذكر ابراهيم بن المهدي قال استأذنت على الامين يوما وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه فأبوا أن يأذنوا لي بالدخول عليه الى أن كاثرت ودخلت فاذا هو قد تطلع الى دجلة بالشبالة وكان في وسط قصره بركة عظيمة لها مخترق الى الماء في دجلة وفي المخترق شبالة حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا الى تفتيش الماء وهو كالواله فقال لي وقد ثنيت بالسلام وكررت لا تؤذوني فقرطتي قد ذهبت في البركة الى الدجلة والمقرطة سمكة كانت قد صيدت له وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در قال فخرجت وأنا مؤيس من فلاحه وقلت لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت وكان محمد في نهاية الشدة والقوة والبطش والبهاء والجمال الا أنه كان عاجز الرأي ضعيف التدبير غير مفكر في أمره

(وحكي) انه اصطبح يوما وقد كان خرج أصحاب البابيد والحراب على البغال وهم الذين كانوا يصطادون السباع الى سبع كان بلغهم خبره بناحية كوثى والقصر فاحتالوا في السبع الى أن أتوا به في قفص من خشب على حمل بختي فحط بباب القصر وأدخل فمثل في صحن القصر والامين مصطبح فقال خلوا عنه وشيلوا باب القفص فقيل له يا أمير المؤمنين انه سبع هائل أسود وحش فقال خلوا عنه فشالوا باب القفص فخرج سبع أسود له شعر عظيم مثل الثور فزأر وضرب بذنبه الى الارض فتهارب الناس وغلقت الابواب في وجهه وبقي الامين وحده جالسا موضعه غير مكترث بالاسد فقصده الاسد حتى دنا منه فضرب الامين بيده الى مرفقة ارمنية فامتنع منه بها ومد السبع يده اليه فجذبها الامين وقبض على أصل أذنيه وغمزه ثم هزه ودفع به الى خلف فوقع السبع ميتا على مؤخره وتبال در الناس الامين فاذا أصابعه وتفاصيل يديه قد زالت عن مواضعها فاتى بمجبر فرد عظام أصابعه الى مواضعها وجلس كأنه لم يعمل شيأ فشقوا بطن الاسد فاذا مرارته انشقت عن كبده

وحكي أن المنصور جلس ذات يوم ودخل اليه بنو هاشم من أهله فقال لهم وهو مستبشر أما علمتم أن محمدا المهدي ولد البارحة له ولد ذكر وقد سميناه موسى فلما سمع القوم ذلك وجموا وكأنما ألقي في وجوههم الرماد ولم يحيروا جوابا فنظر اليهم المنصور فقال لهم هذا موضع دعاء وتهنئة وأراكم قد سكتم ثم استرجع فقال كأني بكم لما أخبرتكم بتسميتي اياه موسى اغتممتم به لان المولود المسمى بموسى بن محمد هو الذي على رأسه تختلف الكلمة وتنتهب الخزائن ويضطرب الملك ويقتل أبوه وهو المخلوع من الخلافة ليس هو ذاك ولا هذا زمانه والله ان جد هذا المولود يعني هارون الرشيد

لم يولد بعد قال فدعوا له وهنوه وهنوا المهدى وكان هذا موسى الهادى أخا الرشيد وكان العهد الذى كتبه الرشيد بين الامين والمأمون وأودعه الكعبة أن الغادر منهما خارج من الامر أيهما غدر بصاحبه والخلافة للمغدور به

(من كتاب مروج الذهب)

ذكر خلافة المعتصم

وبويع المعتصم فى اليوم الذى كانت فيه وفاة المأمون على عين البديدون وهو يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين واسمه محمد بن هارون ويكنى بأبى اسحاق وكان بينه وبين العباس بن المأمون فى ذلك الوقت تنازع فى المجلس ثم انقاد العباس الى بيعته والمعتصم يومئذ ابن ثمان وثلاثين سنة وشهرين وأمه أساحية اسمها ماريه بنت شبيب وقيل انه بويع سنة تسع عشرة وتوفى بسر من رأى سنة سبع وعشرين وهو ابن ست وأربعين سنة وعشرة أشهر فكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر وقبره بالجوسق

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه

واستوزر المعتصم محمد بن عبد الملك الى آخر أيامه وغلب عليه ابن أبى دواد ولم يزل محمد بن عبد الملك فى أيام المعتصم والواثق الى أن ولى المتوكل وكان فى نفسه عليه شئ فقتله وكان المعتصم يحب العمارة ويقول ان فيها أمورا محمودة فاولها عمران الارض التى يحيى بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه وكان المعتصم ذا بأس وشدة فى قلبه فذكر أحمد بن أبى دواد وكان به انسا قال فلما أنكر المعتصم نفسه وقوته دخلت عليه يوما وعنده ابن ماسويه فقام المعتصم فقال لى لا تبرح حتى أخرج اليك فقلت ليحيى بن ماسويه ويحك انى أرى أمير المؤمنين قد حال لونه ونقصت قوته وذهبت سورته فكيف تراه أنت قال هو والله زبرة من زبر الحديد الا أن فى يده فاسا يضرب بها تلك الزبرة فقلت وكيف ذاك قال كان قبل ذلك اذا أكل السمك اتخذ له صباغا من الخل والكراويا والكمون والسداب والكرفس والخردل فأكله بذلك الصباغ فدفع أذى السمك واضراره بالعصب واذا أكل الرؤس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها وكان فى أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتى فصار اليوم اذا أنكرت عليه شيأ خالفنى وقال أأكل هذا على رغم أنف ابن ماسويه قال وهو خلف الستر يسمع ما نحن فيه فقلت ويحك يا يحيى أدخل أصبعك فى عينيه

قال جعلت فداك ما أقدر أراه ولا أجترى عليه فى خلاف فلما فرغ من كلامه خرج علينا المعتصم فقال لى ما الذى كنت فيه مع ابن ماسويه قلت ناظرته يا أمير المؤمنين فى لونك الذى أراه حائلا وفى قلة طعامك الذى هد جوارحى وأنحل جسمى قال فما قال لك قلت شكا أنك كنت تقبل ما يشير به عليك وكنت ترى فى ذلك على ما يحب وانك الآن تخالفه قال فما قلت له أنت قال فجعلت أصرف الكلام قال فضحك وقال هذا بعد ما دخل فى عينى أو قبل ذلك قال فارفضضت عرقا وعلمت انه قد سمع ما كان فيه ورأى ما قد داخلنى فقال يغفر لك يا أحمد لقد فرحت بما ظننت أنه أحزنك اذا سمعته وعلمت أنه نوع من أنواع الانبساط والبسط وكان المعتصم يأنس بعلى بن الجنيد الاسكافى وكان عجيب الصورة عجيب الحديث فيه سلامة أهل السواد فقال المعتصم يوما لمحمد بن حماد اذهب بالغداة الى على بن الجنيد فقل له يتهيأ حتى يزاملنى فأتاه فقال له ان أمير المؤمنين يأمرك أن تزامله فتهيأ لشروط من زاملة الخلفاء قال على بن الجنيد وكيف أتهيأ أهيئ لى رأسا غير رأسى أشترى لحية غير لحيتى أأزيد فى قامتى أنا متهيئ وفضله قال لست تدرى بعد ما شروط مزاملة الخلفاء ومعادلتهم فقال على بن الجنيد وما هى هات يا من تدرى قال له ابن حماد وكان أديبا ظريفا وكان برسم الحجاب شرط المعادلة الامتاع بالحديث والمذاكرة والمناولة وأن لا يبزق ولا يسعل ولا يتنخع ولا يمخط وأن يتقدم الرئيس فى الركوب اشفاقا عليه من الميل وأن يتقدمه فى النزول فمتى لم يفعل المعادل هذا كان سواء والمثقلة الرصاص التى تعدل بها القبة واحدا وليس له أن ينام وان نام الرئيس بل يأخذ نفسه بالتيقظ ومراعاة حال من هو معه وما هو راكبه لانهما اذا ناما جميعا فمال جانب لا يشعر بميله كان فى ذلك ما لا خفاء به وعلى ابن الجنيد ينظر اليه فلما أكثر عليه فى هذا الوصف والشروط قطع عليه كلامه وقال كما يقول أهل السواد آخرها اذهب له فقل له ما يزاملك الا من أمه زانية وهو كنخان فرجع ابن حماد فقال للمعتصم ما قال فضحك المعتصم وقال جئنى به فجاءه فقال يا على أبعث اليك تزاملنى فلا تفعل فقال ان رسولك هذا الجاهل الازعر جاءنى بشروط حسان الشاشى وخالويه المحاكى فقال لا تبزق ولا تنعل كذا وافعل كذا وجعل يخط فى كلامه ويترفع من صاداته ويشير بيديه ولا تسعل ولا تعطس وهذا لا يقوم لى ولا أقدر عليه فان رضيت أن أزاملك فان جاءنى القساء فسوت عليك وضرطت واذا جاءك أنت فأده فافسو واضرط والا فليس بينى وبينك عمل فضحك المعتصم حتى فحص برجليه وذهب به الضحك كل مذهب وقال نعم زاملنى على هذه الشريطة قال نعم وكرامة فزامله فى قبة على بغل فسار اساعة وتوسطا البر فقال على يا أمير المؤمنين حضر ذلك المتاع فما ترى قال ذلك اليك اذا شئت قال تحضر ابن حماد فأمر المعتصم باحضاره فقال له على تعال حتى أسارك فلما دنا منه فسا وناوله كمه

وقال أجد دبيب شئ فى كمى فانظر ماهو فأدخل رأسه فشم رائحة الكنيف فقال ما أرى شيأ ولكنى لم أعلم ان فى جوف ثيابك كنيفا والمعتصم قد غطى فمه بكمه وقد ذهب به الضحك كل مذهب ثم جعل يقوس فساء متصلا ثم قال لابن حماد قلت لى لا تسعل ولا تبرق ولا تمخط فلم أفعل ولكنى أخرا عليك قال فاتصل فساؤه والمعتصم يخرج رأسه من العمارية ثم قال للمعتصم قد نضجت القدر وأريد أخرى فقال المعتصم ورفع صوته حين كثر ذلك عليه ويلك يا غلام الارض الساعة أموت ودخل على بن الجنيد الاسكافى يوما على المعتصم فقال له بعد أن ضاحكه وزهاله يا على مالى لا أراك ويلك أنسيت الصحبة وما حفظت المودة فقال له حينئذ بالغ الكلام الذى أريد أن أقوله قلته أنت ما أنت الا بليس فضحك ثم قال لا تجئنى قال آه كم أجىء فلا أصل أنت اليوم بيل فكأنك من بنى مارية وبنو مارية أناس من أهل السواد يضرب بهم أهل السواد الامثال لكبرهم فى نفوسهم فقال له المعتصم هذا سندان التركى وأشار الى غلام على رأسه بيده مذبة وقال له يا سندان اذا حضر فأعلمنى وان أعطاك رقعة فأوصلها الى وان حملك رسالة فاخبرنى بها قال نعم يا سيدى وانصرف فأقام أياما ثم جاء يطلب سندان فقالوا هو نائم فانصرف ثم عاد فقالوا هو داخل ولا تصل اليه فانصرف وعاد فقالوا هو عند أمير المؤمنين فاحتال حتى دخل عند المعتصم من جهة أخرى فضاحكه ساعة وعاتبه وقال له يا على ألك حاجة قال نعم يا أمير المؤمنين ان رأيت سندان التركى فاقرئه منى السلام فضحك وقال ما حاله قال حاله انك جعلت بينى وبينك انسانا رأيتك قبل ان أراه وقد اشتقت اليه فأسألك ان تبلغه منى السلام فغلب المعتصم الضحك وجمع بينه وبين سندان وأكد عليه فى مراعاة أمره فكان لا يمنع منه وعبر المعتصم من سر من رأى من الجانب الغربى وذلك فى يوم مطير وقد تبع ذلك ليلة مطيرة وانفرد من أصحابه واذا حمار قد زلق ورمى بما عليه من الشوك وهو الشوك الذى يوقد به التنانير بالعراق وصاحبه شيخ ضعيف واقف ينتظر انسانا يعينه على حمله فوقف عليه وقال ما لك يا شيخ قال قد بنك حمارى وقع عنه هذا الحمل وقد بقيت أنتظر انسانا يعينى على حمله فذهب المعتصم ليخرج الحمار من الطين فقال جعلت فداك تفسد ثيابك هذه وطيلسانك الذى أشمه من أجل حمارى هذا قال لا عليك فنزل واحتمل الحمار بيد واحدة وأخرجه من الطين فبهت الشيخ وجعل ينظر اليه ويتعجب ويترك الشغل بحماره ثم شد عنان فرسه فى وسطه وأهوى الى الشوك وهو حزمتان فحملهما فوضعهما على الحمار ثم دنا من غدير فغسل يديه واستوى على فرسه فقال الشيخ السوادى رضى الله عنك وقال بالنبطية اسعل فرمى يا جوافنا وتفسير ذلك قد بنك يا شاب وأقبلت الخيول فقال لبعض خاصته أعط هذا الشيخ أربعة آلاف درهم وكن معه حتى تجاوز به أصحاب المسالح وتبلغ به قريته وفى سنة تسع عشرة ومائتين

كانت وفاة أبي نعيم الفضل بن دكين مولى طلحة بن عبد الله بالكوفة وبشر بن غياث المريسي وعبد الله بن رجاء العراقي وفيها ضرب المعتصم احمد بن حنبل ثمانية وثلاثين سوطا ليقول بخلق القرآن وفي هذه السنة وهي سنة تسع عشرة ومائتين قبض محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وذلك لخمس خلون من ذي الحجة ودفن ببغداد في الجانب الغربي بمقابر قريش مع جده موسى بن جعفر وصلى عليه الواثق وقبض وهو ابن خمس وعشرين سنة وقبض أبوه علي بن موسى الرضا ومحمد ابن سبع سنين وثمانية أشهر وقيل غير ذلك وقيل ان أم الفضل بنت المأمون لما قدمت معه من المدينة الى المعتصم سمته واتخذ كرنا من أمره ما وصفنا لان أهل الامامة اختلفوا في مقدار سنه عند وفاة أبيه وفي سنة تسع عشرة ومائتين أخاف المعتصم محمد بن عبد القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمهم الله وكان بالكوفة من العبادة والزهد والورع ونهاية الوصف فلما خاف على نفسه هرب فصار الى خراسان فتنقل من مواضع كثيرة من كورها كمرو وسرخس والطالقان ونسا فكانت له هنالك حروب وكوائن وانقاد اليه والى امامته خلق كثير من الناس ثم حمله عبد الله بن طاهر الى المعتصم فحبسه في أتون اتخذه في بستان يسر من رأى وقد تنوزع في محمد بن القاسم فمن قائل يقول انه قتل بالسم ومنهم من يقول ان ناسا من شيعته من الطالقان أتوا ذلك البستان فتناولوا لخدمة فيه من غرس وزراعة واتخذوا سلالم من الحبال والابود والطالقانية ونقبوا الاتون وأخرجوه فذهبوا به فلم يعرف له خبر الى هذه الغاية وقد انقاد الى امامته خلق كثير من الزيدية الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ومنهم خلق كثير يزعمون أن محمدا لم يمت وأنه حي يرزق وأنه يخرج فيملأها عدلا كما ملئت جورا وأنه مهدي هذه الامة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وقول هؤلاء في محمد بن القاسم نحو قول رافضة الكيسانية في محمد بن الحنفية ونحو من قول الواقفية في موسى بن موسى بن جعفر وهم المطورة بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة وكان المعتصم يحب جميع الاتراك وشراءهم من أيدي مواليهم فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده وقد كان اصطنع قوما من حوفي مصر من حوف اليمن وحوف قيس فسماهم المغاربة واستنقد رجال خراسان من الفراعنة وغيرهم من الاشروسية فكثر جيشه وكانت الاتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها الخيول في الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمته لامرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير فعزم المعتصم على النقلة منهم وأن ينزل في فضاء من الارض فنزل الرذان على أربعة فراسخ من بغداد

فلم يستطب هواءها ولا اتسع له هواؤها فلم يزل ينتقل ويتقرى المواضع والاماكن الى دجلة وغيرها حتى انتهى الى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموضع وكان هنالك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول اخذا من دجلة فبنى هنالك قصرا وبنى الناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكان الا اليسير

ولما تأذى المعتصم بالموضع وتعذر البناء فيه خرج يتقرى المواضع فانتهى الى موضع سامرا وكان هنالك للنصارى دير عادى فسأل بعض أهل الدير عن اسم الموضع فقال يعرف بسامرا قال له المعتصم وما معنى سامرا قال نجدها في الكتب السالفة والامم الماضية انها مدينة سام بن نوح قال له المعتصم ومن أي بلاد هي وإلام تضاف قال من بلاد طبرهات واليها تضاف فنظر المعتصم الى فضاء واسع تسافر فيه الابصار وهواء طيب وأرض صحيحة فاستمراها واستطاب هواءها وأقام هنالك ثلاثا يتصيد في كل يوم فوجد نفسه تتوق الى الغذاء وتطلب الزيادة على العادة الجارية فعلم ان ذلك لتأثير الهواء والتربة فلما استطاب الموضع دعا بأهل الدير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار وارتاد لبناء قصره موضعا فيها فأسس بنيانه وهو الموضع المعروف بالوزيرية بسر من رأى واليها يضاف التين الوزيري وهو أعذب الاتيان وأرقها قشرا وأصغرها حبا لا يبلغه تين الشام ولا تين اهان وحلوان فارتفع البنيان وأحضر له الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الامصار ونقل اليها من سائر البقاع أنواع الغروس والاشجار فجعل للاتراك قطائع متجاورة وجاورهم بالفراعنة والاشروسية وغيرهم من مدن خراسان على قدر قربهم منهم في بلادهم وأقطع أشناس التركي وأصحابه من الاتراك الموضع المعروف بكرخ سامرا من الفراعنة من أنزلهم الموضع المعروف بالعمري والجسر واختطت الخطط وافتطعت القطائع والشوارع والدروب وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت الدور والقصور وكثرت العمارة واستنبطت المياه وجرت من دجلة وغيرها وتسامع الناس أن دار ملك قد اتخذت فقصدوها وجهزوا اليها من أنواع الامتعة وسائر ما ينتفع به الناس وغيرهم من الحيوان وكثر العيش واتسع الرزق وشملهم الاحسان وعمهم العدل وكان بدء ما وصفنا فيها فعله المعتصم سنة احدى وعشرين ومائتين واشتد أمر بابك وسار عساكره نحو تلك الامصار فدق العساكر وكسر الجيوش فسير اليه المعتصم بالجيوش وعليها الافشين وكثرت حروبه واتصلت وضاق بابك في بلاده حتى انفض جمعه وقتل رجاله وامتنع بالجبل المعروف باليذ من أرض الران وهي بلاد بابك وبه يعرف الى هذا الوقت فلما استشعر بابك نزل به وأشرف عليه هرب من موضعه وزال عن مكانه فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه وقد تزيا بزي السفر وأهل التجارة والقوافل فنزل موضعا من بلاد أرمينية

على بعض المياه وبالقرب منهم راعي غنم فابتاعوا منه شاة وساموا شراء شيء من الزاد لهم فمضى من فوره الى سهل بن سنباط فأخبره الخبر وقال هو بابك لاشك فيه وقد كان الافشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله خشي أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع أو ينضاف الى بعض الامم الفاطنة ببعض تلك الديار فيكثر جمعه وينضاف اليه فلال عسكره فيرجع الى ما كان من أمره فاخذ الطرق وكاتب البطارقة في الحصون والمواضع من بلاد ارمينية واذربيجان والران والبيلقان وضمن في ذلك الرغائب فلما سمع سهل بن سنباط من الراعي ما أخبره به سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه حتى أتى الموضع الذي به بابك فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له أيها الملك قم الى قصرك الذي فيه وليك وموضع نعمك فيه الله من عدوك فسار معه الى أن أتى قلعته وأجلسه على سريره ورفع منزلته ووطأ له منزله ومن معه وقدمت المائدة وقعد يأكل معه فقال له بابك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع اليه أمثلك يأكل معي فقام سهل عن المائدة وقال أخطأت أيها الملك وأنت أحق من احتمل عبده اذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك وجاءه بحداد وقال له مد رجليك أيها الملك وأوقفه بالحديد فقال له بابك أغدرا ياسهل قال يا ابن الخبيثة انما أنت راعي غنم وبقر وما أنت والتدبير للملك ونظم السياسات وقيد من كان معه وأرسل الى الافشين يخبره الخبر وأن الرجل عنده فسرح اليه الافشين باربعة آلاف فارس عليهم الحديد وعليهم خليفة يقال له بوماده فتسلمه ومن معه وأتى به الى الافشين ومعه ابن سنباط فرفع الافشين منزلة سهل وخلع عليه وحمله وتوجه وقاد بين يديه واسقط عنه الخراج فأطلقه وأطلقت الطيور الى المعتصم وكتب اليه بالفتح فلما وصل اليه ذلك ضج الناس بالتكبير وعمهم الفرح وأظهروا السرور وبثت الكتب الى الامصار بالفتح وقد كان أفنى عساكر السلطان فسار الافشين ببابك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين وتلقى الافشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ونزل بالموضع المعروف بالقاطول على خمس فراسخ من سامرا وبعث اليه بالفيل الاشهب وكان قد حمله بعض ملوك الهند الى المأمون وكان فيلا عظيما قد جلل بالديباج الاحمر والاخضر وأنواع الحرير الملون ومعه ناقة عظيمة نجيبة قد جللت بما وصفنا وحمل الى الافشين دراعة من الديباج الاحمر منسوجة بالذهب قد رصع صدرها بانواع الياقوت والجوهر ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بالوان مختلفة وقد نظم على القلنسوة كثيرا من اللؤلؤ والجوهر وألبس بابك الدراعة وألبس أخوه الاخرى وجعلت القلنسوة على رأس بابك وعلى رأس أخيه نحوها وقدم اليه الفيل والى أخيه الناقة فلما رأى صورة الفيل استعظمه وقال ما هذه الدابة العظيمة واستحسن الدراعة وقال هذه كرامة

ملك عظيم جليل الى أسير فقد العز ذليل أخطأته الاقدار و زالت عنه الجدود وتورطة المحن انها الفرحة تقتضى ترحه وضرب له المصاف صفين فى الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبنود من القاطول الى سامرا مدد واحد متصل غير منفصل وبابك على الفيل وأخوه وراءه على الناقة والفيل يخطر بين الصفين به وبابك ينظر الى ذات اليمين وذات الشمال ويميز الرجال والعدد ويظهر الاسف والحنين على مافاته من سفك دمائهم غير مستعظم لما يرى من كثرتهم وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ولا مثل تلك الزينة ودخل الافشين على المعتصم فرفع منزلته وأعلى مكانه وأتى بابك فطوف بين يديه فقال له المعتصم أنت بابك فلم يجب وكررها عليه مرارا وبابك ساكت فقال اليه الافشين وقال الويل لك أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت فقال نعم أنا بابك فسجد المعتصم عند ذلك وأمر بقطع يديه ورجليه (من كتاب مروج الذهب)

ذكر خلافة المنتصر بالله

وبويع محمد بن جعفر المنتصر فى صبيحة الليلة التى قتل فيها المتوكل وهى ليلة الاربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ويكنى بأبى جعفر وأمه أم ولد يقال لها حبشية رومية واستخلف وهو ابن خمس وعشرين سنة وكانت بيعته بالقصر المعروف بالجعفرى الذى أحدث بناءه المتوكل ومات سنة ثمان وأربعين ومائتين وكانت خلافته ستة أشهر

ذكر جمل من أخباره وسيره ولمع مما كان فى أيامه

كان الموضع الذى قتل فيه المتوكل هو الموضع الذى قتل فيه شيرويه أباه كسرى ابرويز وكان الموضع يعرف بالماخورة وكان مقام المنتصر بعد أبيه فى الماخورة سبعة أيام ثم انتقل عنه وأمر بتخريب ذلك الموضع وحكى عن أبى عباس محمد بن سهل قال كنت أكتب لعتاب بن عتاب على ديوان جيش الشاكرية فى خلافة المنتصر فدخلت الى بعض الاروقة فاذا هو مفروش ببساط سوسنجرد ومسند ومصلى ووسائد بالحمرة والزرقة وحول البساط دارات فيها أشخاص ناس وكتابة بالفارسية وكنت أحسن القراءة بالفارسية واذا عن يمين المصلى صورة ملك وعلى رأسه تاج كأنه ينطق فقرأت الكتابة فاذا هى صورة شيرويه القاتل لابيه ابرويز الملك ملك ستة أشهر ثم رأيت صور ملوك شتى ثم انتهى بى النظر الى صورة عن يسار المصلى عليها مكتوب صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ملك ستة أشهر فعجبت من ذلك واتفاقه عن يمين مقعد المنتصر وعن شماله فقلت لا أرى يدوم ملكه أكثر من ستة أشهر فكان والله كذلك فخرجت من الرواق

الى مجلس وصيف و بغا وهما فى الدار الثانية فقلت لوصيف أعجز هذا الفراش أن يفرش تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذى عليه صورة يزيد بن الوليد قاتل ابن عمه وصورة شيرويه قاتل أبيه ابرويز وعاش ستة أشهر بعد ما قتلا فجزع وصيف من ذلك وقال على بابوب بن سليمان النصرانى خازن الفرش فنثل بين يديه فقال له وصيف لم تجد ما يفرش فى هذا اليوم تحت أمير المؤمنين الا هذا البساط الذى كان تحت المتوكل ليلة الحادثة وعليه صورة ملك الفرس وغيره وقد كان ناله آثار الدماء قال سألنى أمير المؤمنين المنتصر عنه وقال ما فعل البساط فقلت عليه آثار دماء فاحشة وقد عزمت أن لا أفرشه من ليلة الحادثة فقال لم لا تغسله وتطويه فقلت خشيت أن يشيع الخبر عند من يرى ذلك البساط من آثار الحادثة فقال ان الامر أشهر من ذلك يريد قتل الاتراك لابيه المتوكل فطويناه وبسطناه تحته فقال وصيف وبغا اذا قام أمير المؤمنين من مجلسه فخذه وأحرقه بالنار فلما قام حرق بحضرة وصيف و بغا فلما كان بعد أيام قال لى المنتصر افرش ذلك البساط الفلانى فقلت وأين ذلك البساط فقال وما الذى كان من أمره فقلت ان وصيفا وبغا أمرانى باحراقه قال فسكت ولم يعد فى أمره شيأ الى أن مات (من كتاب مروج الذهب)

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله

الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ولد بالقصر من القاهرة المعزية ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الاول سنة خمس وسبعين وثلثمائة فى الساعة التاسعة والطالع من برج السرطان سبع وعشرون درجة وسلم عليه بالخلافة فى مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء ثامن عشر من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة وسار الى القاهرة فى يوم الاربعاء بسائر أهل الدولة والعزيز فى قبة على ناقة بين يديه وعلى الحاكم دراعة مصمت وعمامة فيها الجوهر و بيده رمح وقد تقلد السيف ولم يفقد من جميع ما كان مع العساكر شئ ودخل القصر قبل صلاة المغرب وأخذ فى جهاز أبيه العزيز بالله ودفنه ثم بكر سائر أهل الدولة الى القصر يوم الخميس وقد نصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهبة فى الايوان الكبير وخرج من قصره راكبا وعليه عمامة الجوهر والناس وقوف فى صحن الايوان فقبلوا له الارض ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير فوقف من رسمه الوقوف وجلس من له عادة ان يجلس وسلم الجميع عليه بالامامة واللقب الذى اختير له وهو الحاكم بأمر الله وكان سنه يومئذ احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام

فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكتامى واسطة ولقبه بأمين الدولة وأسقط مكوسا كانت بالساحل وردا الى الحسين بن جوهر القائد البريد والانشاء فكان يخلفه ابن سورين وأقر عيسى بن نسطورس

على ديوان الخاص وقلد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام فخرج بنجوتكين بدمشق وسار منها لمدافعة سليمان بن جعفر بن فلاح فبلغ الرملة وانضم اليه ابن الجراح الطائى فى كثير من العرب وواقع ابن فلاح فانهزم وفر ثم أسر وحمل الى القاهرة فاكرم واختلف أهل الدولة على ابن عمار ووقعت حروب آلت الى صرفه عن الوساطة وله فى النظر أحد عشر شهرا غير خمسة أيام فلزم داره وأطلقت له رسوم وجرايات وأقيم الطواشى برجوان الصقلبى مكانه فى الوساطة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع وثمانين وثلثمائة فجعل كاتبه فهد بن ابراهيم يوقع عنه ولقبه بالرئيس وصرف سليمان بن فلاح عن الشام بجيش بن الصمصامة وقلد قتل بن اسماعيل الكامى مدينة صور وقلد يانس الخادم برقة وميسورا الخادم طرابلس ويمنا الخادم غزة وعسقلان فواقع جيش الروم على قامية وقتل منهم خمسة آلاف رجل وغزا الى أن دخل مرعش وقلد وظيفة قضاء القضاة أبا عبد الله الحسين بن على بن النعمان فى صفر سنة تسع وثمانين بعد موت قاضى القضاة محمد ابن النعمان وقتل الاستاذ برجوان لاربع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وله فى النظر سنتان وثمانية أشهر غير يوم واحد

ورد النظر فى أمور الناس وتدبير المملكة والتوقيعات الى الحسين بن جوهر ولقب بقائد القواد فخلفه الرئيس فهد واتخذ الحاكم مجلسا فى الليل يحضر فيه عدة من أعيان الدولة ثم أبطله ومات جيش بن الصمصامة فى ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة فوصل ابنه بتركته الى القاهرة ومعه درج بخط أبيه فيه وصية ونبت بما خلفه مفصلا وان ذلك جميعه لامير المؤمنين الحاكم بامر الله لا يستحق أحد من أولاده منه درهما وكان مبلغ ذلك جميعه نحو المائتين ألف دينار ما بين عين ومتاع ودواب قد أوقف جميع ذلك تحت القصر فأخذ الحاكم الدرج ونظره ثم أعاده الى أولاد جيش وخلع عليهم وقال لهم بحضرة وجوه الدولة قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله وما وصى به من عين ومتاع فخذوه هنيأ مباركا لكم فيه فانصرفوا بجميع التركة

ومنع الناس كافة من مخاطبته أحد ومكاتبته بسيدنا ومولانا الا أمير المؤمنين وحده وأبيح دم من خالف ذلك وفى شوال قتل ابن عمار وفى سنة احدى وتسعين واصل الحاكم الركوب فى الليل كل ليلة وكان يشق الشوارع والازقة وبالغ الناس فى الزقيد والزينة وأنفقوا الاموال الكثيرة على المآكل والمشارب والغناء واللهو وكثر تفرجهم على ذلك حتى خرجوا فيه عن الحد فمنع النساء من الخروج فى الليل ثم منع الرجال من الجلوس فى الحوانيت

وفى سنة خمس وتسعين أمر النصارى واليهود بشد الزنانير ولبس الغيار ومنع الناس من أكل الملوخيا والجرجير والمتوكلية والدلنس وذبح الابقار السليمة من العاهة الا فى أيام الاضحية

ومنع من بيع الفقاع وعمل البتة وأن لا يدخل أحد الحمام الا بمئزر وأن لا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج ولا يباع شئ من السمك بغير قشر ولا يصطاده أحد من الصيادين وتتبع الناس في ذلك كله وتشدد فيه وضرب جماعة بسبب مخالفتهم ما أمر وا به ونهوا عنه مما ذكر وخرجت العساكر لقتال بني قرة من أهل البحيرة وكتب على أبواب المساجد وعلى الجامع بمصر وعلى أبواب الحوانيت والحجر والمقابر بسب السلف ولعنهم وأكره الناس على نقش ذلك وكتابته بالاصباغ في سائر المواضع وأقبل الناس من سائر المواضع فدخلوا في الدعوة وجعل لهم يومان في الاسبوع وكثر الازدحام على ذلك ومات فيه جماعة

ومنع الناس من الخروج بعد المغرب في الطرقات وأن لا يظهر أحد بها البيع ولا شراء فخلت الطرق من المارة وكسرت أواني الخمور وأريقت من سائر الاماكن واشتد خوف الناس بأسرهم وقويت الشناعات وزاد الاضطراب فاجتمع كثير من الكتاب وغيرهم تحت القصر وضجوا يسألون العفو فكتبت عدة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة وغيرهم من الباعة والرعية وأمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا يحصى حتى فقدت وفتحت دار الحكمة بمصر وحمل اليها الكتب ودخل اليها الناس واشتد الطلب على الركابية المستخدمين في الركاب وقتل منهم كثيرا ثم عفا عنهم وكتب لهم أمانات ومنع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة وهم ركاب ومنع المكارين أن يدخلوا بحميرهم الى القاهرة ومنع الناس من المشي ملاصق القصر وقتل قاضي القضاة حسين بن النعمان وأحرق بالنار وقتل عدد من الناس كثير ضربت أعناقهم

وفي سنة ست وتسعين خرج أبو ركوة يدعو الى نفسه وادعى أنه من بني أمية فقام بأمره بنو قرة لكثرة ما أوقع بهم الحاكم وبايعوه واستجاب له لواته ومزاته وزناته وأخذ برقة وهزم جيوش الحاكم غير مرة وغنم ما معهم فخرج لقتاله القائد فضل بن صالح في ربيع الاول وواقعه فانهزم منه فضل واشتد الاضطراب بمصر وتزايدت الاسعار واشتد الاستعداد لمحاربة أبي ركوة ونزلت العساكر بالجيزة وسار أبو ركوة فواقعه القائد فضل وقتل عدة ممن معه فعظم الامر واشتد الخوف وخرج الناس فباتوا في الشوارع خوفا من هجوم عساكر أبي ركوة واستمرت الحروب فانهزم أبو ركوة في ثالث ذي الحجة على الفيوم وتبعه القائد فضل بعد أن بعث الى القاهرة ستة آلاف رأس ومائة أسير الى أن قبض عليه في بلاد النوبة وأحضر الى القاهرة فقتل بها وخلع على القائد فضل وسيرت البشائر بقتله في الاعمال

وفي سنة سبع وتسعين وثلثمائة أمر بمحو سب السلف فمحي سائر ما كتب من ذلك وغلت الاسعار لنقص النيل فانه بلغ ستة عشر أصبعا من سبعة عشر ذراعا ثم نقص ومات بنجوتكين في ذي الحجة

واشتد الغلاء فى ثمان وتسعين وولى على بن فلاح دمشق وقبض جميع ماهو محبس على الكنائس وجعل فى الديوان وأحرق عدة صلبان على باب الجامع بمصر وكتب الى سائر الاعمال بذلك وفى سادس عشر رجب قرر مالك بن سعيد الفارقى فى وظيفة قضاء القضاة وتسلم كتب الدعوة التى تقرأ بالقصر على الاولياء وصرف عبد العزيز بن النعمان عن ذلك

ووقفت زيادة النيل واستسقى الناس مرتين وأمر بابطال عدة مكوس وتعذر وجود الخبز لغلائه وقلته وفتح الخليج فى رابع توت والماء على خمسة عشر ذراعا فاشتد الغلاء وفى تاسع محرم وهو نصف توت نقص ماء النيل ولم يوف ستة عشر ذراعا فمنع الناس كافة من التظاهر بالغناء ومن ركوب البحر للتفرج ومنع من بيع المسكرات ومنع كافة من الخروج قبل الفجر وبعد العشاء الى الطرقات واشتد الامر على الكافة لشدة مادا خلهم من الخوف مع شدة الغلاء وتزايد الامراض فى الناس والموت

وتزايدت الامراض وكثر الموت وعزت الادوية وأعيدت المكوس التى رفعت وهدمت كنائس كانت بطريق المقس وهدمت كنيسة بحارة الروم من القاهرة ونهب مافيها وقتل كثير من الخدام والكتاب والصقالبة بعد ماقطعت أيدى بعضهم من الكتاب بالساطور على خشبة من وسط الذراع وقتل القائد فضل بن صالح فى ذى القعدة وفى حادى عشر صفر صرف صالح بن على الروذبارى وقرر مكانه ابن عبدون النصرانى الكاتب ولقب بالكافى فوقع عن الحاكم ونظر وكتب بهدم كنيسة القمامة وجدد ديوانا يقال له الديوان المفرد برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم وكثرت الامراض وعزت الادوية وشهر جماعة وجد عندهم فقاع وملوخيا ودلبس وترمس وضربوا وهدم دير القصر واشتد الامر على النصارى واليهود فى الزامهم لبس الغيار وكتب بابطال أخذ الخمس والنجاوى والفطرة وفر الحسين بن جوهر وأولاد وعبد العزيز بن النعمان وفر أبو القاسم الحسين بن المغربى وكتبت عدة أمانات لعدة طوائف من شدة خوفهم وقطعت قراءة مجالس الحكمة بالقصر ووقع التشديد فى المنع من المسكرات وقتل كثير من الكتاب والخدام والفراشين وقتل صالح بن على الروذبارى فى شوال

وفى رابع المحرم سنة احدى واربعمائة صرف الكافى بن عبدون عن النظر والتوقيع وقرر بدله أحمد بن محمد القشورى الكاتب فى الوساطة والسفارة وحضر حسين بن جوهر وعبد العزيز ابن النعمان الى القاهرة فأكرم ثم صرف ابن القشورى بعد عشرة أيام من استقراره وضرب عنقه وقرر بدله زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصرانى ولقب بالشافى ومنع الناس من ركوب المراكب فى الخليج وسدت أبواب الدور التى على الخليج والطاقات وأضيف الى قاضى القضاة

مالك بن سعيد النظر فى المظالم وأعيدت مجالس الحكمة وأخذ مال النجوى وقتل ابن عبدون وقبض ماله وضرب جماعه وشهر وامن أجل بيعهم الملوخيا والسمك الذى لا قشر له وبسبب بيع النبيذ وقتل الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان فى جمادى الآخرة فى سنة احدى واربعمائة وأحيط بأموالهما وأبطلت عدة مكوس ومنع الناس من الغناء واللهو ومن بيع المغنيات ومن الاجتماع بالصحراء وفى هذه السنة خلع حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة الحاكم وأقام أبا الفتوح حسين بن جعفر الحسنى أمير مكة خليفة وبايعوه ودعا الناس الى مبايعته وقاتل عساكر الحاكم

وفى سنة اثنتين واربعمائة منع من بيع الزبيب وكتب بالمنع من حمله وألقى فى بحر النيل منه شئ كثير وأحرق منه كثير ومنع النساء من زيارة القبور فلم ير فى الاعياد بالمقابر امرأة واحدة ومنع من الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج من بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها ومنع من عصيره وطرح كثير منه ودبس فى الطرقات وغرق كثير منه فى النيل ومنع من حمله وقطعت كروم الجيزة كلها وسير الى الجهات بذلك

وفى سنة ثلاث واربعمائة غلا السعر وازدحم الناس على الخبز وفى ثانى ربيع الاول منها هلك عيسى بن نسطورس فأمر النصارى بلبس السواد وتعليق الصلبان الخشب فى أعناقهم وأن يكون الصليب ذراعا فى مثلها وزنته خمسة أرطال وأن يكون مكشوفا بحيث يراه الناس ومنعوا من ركوب الخيل وأن يكون ركوبهم البغال والحمير بالسروج الخشب والسيور السود بغير حلية وان يشدوا الزنانير ولا يستخدموا مسلما ولا يشتروا عبدا ولا أمة وتتبعت آثارهم فى ذلك فأسلم منهم عدة وقرر حسين بن طاهر الوزان فى الوساطة والتوقيع عن الحاكم فى تاسع وعشرى ربيع الاول منها ولقب بأمين الامناء ونقش الحاكم على خاتمه بنصر الله العظيم العالى ينتصر الامام أبو على وضرب جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وهدمت الكنائس وأخذ جميع ما فيها وما لها من الرباع وكتب بذلك الى الاعمال فهدمت بها وفيها حتى أبو الفتوح بمكة ودعا للحاكم وضرب السكة باسمه وأمر الحاكم أن لا يقبل أحد له الارض ولا يقبل ركابه ولا يده عند السلام عليه فى المواكب فان الانحناء الى الارض لمخلوق من صنيع الروم وان لا يزاد على قولهم السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ولا يصلى عليه أحد فى مكاتبته ولا مخاطبته ويقتصر فى مكاتبته على سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين ويدعى له بما يتفق من الدعاء فقط لا غير فلم يقل الخطباء يوم الجمعه سوى اللهم صل على محمد المصطفى وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى اللهم وسلم على أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك ومنع من ضرب الطبول والابواق حول القصر فصاروا يطوفون بغير طبل ولا بوق وكثرت انعامات الحاكم فتوقف أمين الامناء حسين بن طاهر الوزان فى امضائها فكتب اليه الحاكم بخطه بعد البسملة

الحمد لله كما هو أهله

أصبحت لا أرجو ولا اتقي * الا الهي وله الفضل
جدي نبي واماي أبي * ودين الاخلاص والعدل

المال مال الله والخلق عباد الله ونحن امناؤه في الارض اطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام وركب الحاكم في يوم عيد الفطر الى المصلى بغير زينة ولا جنائب ولا أبهة سوى عشرة أفراس تقاد بسروج ولجم محلاة بفضة خفيفة وبنود ساذجه ومظلة بيضاء بغير ذهب وعليه بياض بغير طراز ولا ذهب ولا جوهر في عمامته ولم يفرش المنبر ومنع الناس من سب السلف وضرب في ذلك وشهر وصلى صلاة عيد الفطر كما صلى صلاة الفطر من غير أبهة ونحر عنه عبد الرحيم بن الياس بن أحمد المهلبي وأكثر الحاكم من الركوب الى الصحراء بحذاء في رجليه وفوطة على رأسه

وفي سنة أربع وأربعمائة ألزم اليهود أن يكون في أعناقهم جرس اذا دخلوا الى الحمام وأن يكون في عنق النصارى صلبان ومنع الناس من الكلام في النجوم وأفنى المنجمون من الطرقات وطلبوا فتغيبوا ونفوا وكثرت هبات الحاكم وصدقاته وعتقه وأمر اليهود والنصارى بالخروج من مصر الى بلاد الروم وغيرها وأقيم عبد الرحيم بن الياس ولي العهد وأمر ان يقال في السلام عليه السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين وصار يجلس بمكان في القصر وصار الحاكم يركب بدراعة صوف بيضاء ويتعمم بفوطة وفي رجليه حذاء عربي بقبالين وعبد الرحيم يتولى النظر في أمور الدولة كلها وأفرط الحاكم في العطاء وربما كان أخذ من الضياع والاملاك لاربابها

وفي ربيع الأول أمر بقطع يدي أبي القاسم الجرجرائي وكان يكتب للقائدعين ثم قطعت يد عين فصار مقطوع اليدين وبعث اليه الحاكم بعد قطع يديه بآلاف من الذهب والثياب ثم بعد ذلك أمر بقطع لسانه فقطع وأبطل عدة مكوس وقتل الكلاب كلها وأكثر من الركوب في الليل ومنع النساء من المشي في الطرقات فلم ترامرأة في طريق البتة وأغلقت حاماتهن ومنع الاساكفة من عمل خفافهن وتعطلت حوانيتهم واشتدت الاشاعة بوقوع السيف في الناس فتهاربوا وغلقت الاسواق فلم يبع شئ ودعي لعبد الرحيم بن الياس على المنابر وضربت السكة باسمه بولاية العهد

وفي سنة خمس وأربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقي في ربيع الآخر وكانت مدة نظره في قضاء القضاة ست سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام وبلغ اقطاعه في السنة خمسة عشر آلاف دينار وتزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب في كل يوم عدة مرار واشترى الحمير وركبها بدل الخيل وفي جمادى الآخرة منها قتل الحسين بن طاهر الوزان فكانت مدة نظره في الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يوما فأمر أصحاب الدواوين بلزوم دواوينهم وصار الحاكم يركب حمارا بشاشية مكشوفة بغير عمامة

ثم أقام عبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب وأخاه أبا عبد الله الحسين في الوساطة والسفارة وأقر في وظيفة قضاء القضاة أحمد بن محمد بن أبي العوام وخرج الحاكم عن الحد في العطاء حتى أقطع نوائبة المراكب والمشاعلية وبني قرة فما أقطع الاسكندرية والبحيرة ونواحيها ثم قتل ابني أبي السيد وكانت مدة نظرهما اثنين وستين يوما وقلد الوساطة فضل بن جعفر بن الفرات ثم قتله في اليوم الخامس من ولايته وغلب بنو قرة على الاسكندرية وأعمالها وأكثر الحاكم من الركوب في يوم ست مرات مرة على فرس ومرة على حمار ومرة في محفة تحمل على الاعناق ومرة في عشاري على النيل بغير عمامة وأكثر من اقطاع الجند والعبيد الاقطاعات وأقام ذا الرئاستين قطب الدولة أبا الحسن علي بن جعفر بن فلاح في الوساطة والسفارة وولى عبد الرحيم بن الياس دمشق فسار اليها في جمادى الآخرة سنة تسع وأربعمائة فأقام فيها شهرين ثم هجم عليه قوم فقتلوا جماعة ممن عنده وأخذوه في صندوق وحملوه الى مصر ثم أعيد الى دمشق فأقام بها الى ليلة عيد الفطر وأخرج منها

ولما كان الليلتين بقيتا من شوال سنة احدى عشرة واربعمائة فقد الحاكم وقيل ان أخته قتلته وليس بصحيح وكان عمره ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر وكانت مدة خلافته خمسا وعشرين سنة وشهرا وكان جوادا سفاكا قتل عددا لا يحصون وكانت سيرته من أعجب السير وخطب له على منابر مصر والشام وأفريقيه والحجاز وكان يشتغل بعلوم الاوائل وينظر في النجوم وعمل رصدا واتخذ بيتا في المقطم ينقطع فيه عن الناس لذلك ويقال انه كان يعتريه جفاف في دماغه فلذلك كثر تناقضه وما أحسن ما قال فيه بعضهم كانت أفعاله لا تعلل ووساوسه لا تؤول

وقال المسبحي في محرم سنة خمس عشرة واربعمائة قبض على رجل من بني حسين ثار بالصعيد الاعلى فأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه فقيل له قتلته فأخرج سكينا ضرب بها فؤاده وقتل نفسه وقال هكذا قتلته وقطع رأسه وأنفذه الى الحضرة مع ما وجد معه وهذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم لا ما يحكيه المشارقة في كتبهم من أن أخته قتلته والله أعلم

(من كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار لتقي الدين المقريزي)

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

في هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب دمشق وحمص وحماة وسببه أن شمس الدين بن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها فسار الملك الصالح الى حلب مع سعد الدين كشتكين

ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين بن الداية واخوته وقبض على الرئيس ابن الخشاب واخوته وهو رئيس حلب واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة في سبع مائة فارس ولم يلبث ووصل الى دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ونزل بدار والده أيوب المعروفة بدار العقيقي وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستمالة فسلم القلعة اليه فصعد اليهم صلاح الدين وأخذ ما فيها من الاموال ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب وسار الى حمص مستهل جمادى الاولى

وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعودا المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم الا بارين فان قلعتها كانت له أيضا ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الاولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة فنزل عليها من يضيق عليها ورحل الى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض الا حفظ بلاد الملك الصالح عليه وانما هو نائبه وقصده من جرديك المسير الى حلب في رسالة فاستخلفه جرديك على ذلك وسار جرديك الى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

ثم صار صلاح الدين الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فارسل سنان جماعة ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه واستقر صلاح الدين محاصرا لحلب الى مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص وساروا الى حمص فرحل الفرنج عنها ووصل صلاح الدين الى حمص وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة ثم سار الى بعلبك فملكها

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود زنكي وجعل مقدم الجيش أكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلغتداز وطلب أخاه الاكبر

عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار يسير فى النجدة أيضا فامتنع مضابعة لصلاح الدين فسار سيف الدين غازى وحصره بسنجار ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلغنداز الى حلب وانضم اليهم عسكر حلب وسار الى صلاح الدين فارسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة وأن يقرر بيده دمشق ويكون فيها نائبا للملك الصالح فلم يجيبوا الى ذلك وساروا لى قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم فى حلب وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين فى الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقى بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب فى العشر الاول من شوال من هذه السنة وفى العشر الاخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وكان فخر الدين المذكور من أكابر الامراء النورية

ذكر انهزام سيف الدين غازى صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة وفيها عاشر شوال كان المصافة بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بتل السلطان فهرب سيف الدين غازى والعساكر التى كانت معه فانه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما ونمت على سيف الدين غازى الهزيمة حتى وصل الى الموصل مرعوبا وقصد الهروب منها الى بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم وغنم مافيها ثم سار الى بزاعة وحصرها وتسلمها ثم سار الى منبج فحصرها فى آخر شوال وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان النبجى شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه فسار ينال الى الموصل فأقطعه سيف الدين غازى مدينة الرقة

ثم سار السلطان صلاح الدين الى عزاز ونازلها ثالث ذى القعدة وتسلمها حادى عشر ذى الحجة فوثب اسماعيلى على صلاح الدين فى حصاره عزاز فضربه بسكين فى رأسه فجرحه فأمسك صلاح الدين الاسماعيلى وبقى يضربه بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيلى على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضا ونجا السلطان الى خيمته مذعورا وأعرض جنده وأبعد من أنكر منهم ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب فى منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب فسألوه فى الصلح فأجابهم اليه

وأخرجوا اليه بنتا صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيأ كثيرا وقال لها ما ترومين فقالت أريد قلعة عزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان اليهم واستقر الصلح ورحل السلطان من حلب في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين

(من كتاب التاريخ لأبي الفداء المعروف بصاحب حماة)

الباب الثامن في التراجم

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار والله أعلم

(٣٠٣ - ٣٥٤ هجريه)

هو من أهل الكوفة وقدم الشام في صباه وجال في أقطاره واشتغل بفنون الادب ومهر فيها وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ولا يسأل عن شئ الا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل ان الشيخ أبا علي الفارسي صاحب الايضاح والتكملة قال له يوما كم لنا من الجموع على وزن فعلى فقال المتنبي في الحال حجلى ونظربى قال الشيخ أبو علي فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثا فلم أجد وحسبك من يقول في حقه أبو علي هذه المقالة وحجلى جمع حجل وهو الطائر الذي يسمى القبج والنظربى جمع نظربان على مثال قطران وهي دويبة منتنة الرائحة وأما شعره فهو في النهاية ولا حاجة الى ذكر شئ منه لشهرته لكن الشيخ تاج الدين الكندي رحمه الله كان يروي له بيتين لا يوجدان في ديوانه وكانت روايته لهما بالاسناد الصحيح المتصل به فأحببت ذكرهما لغرابتهما وهما

أبعين مفتقر اليك نظرتني * فأهنتني وقذفتني من حالق
لست الملوم أنا الملوم لأنني * أنزلت آمالي بغير الخالق

ولما كان بمصر مرض وكان له صديق يغشاه في علته فلما أبل (١) انقطع عنه فكتب اليه وصلتني وصلك الله معتلا وقطعتني مبلا فان رأيت ان لا تحبب العلة الي ولا تكدر الصحة علي فعلت ان شاء الله تعالى والناس في شعره على طبقات فمنهم من يرجحه على أبي تمام ومن بعده ومنهم من يرجح أبا تمام عليه وقال أبو العباس أحمد بن محمد الماسي الشاعر كان قد بقي من الشعر زاوية فدخلها المتنبي وكنت أشتهي أن أكون قد سبقته الى معنيين قالهما ما سبق اليهما أحدهما قوله

رماني الدهر بالارزاء حتى * فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا أصابتني سهام * تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله في جحفل ستر العيون غباره * فكأنما يبصرن بالآذان

(١) ابل أي برئ من مرضه وحسنت حاله بعد الهزال كما يؤخذ من الصحاح والقاموس